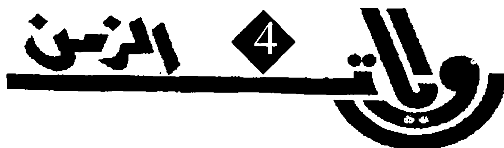
روايات الزمن 4

ديك الشمال

رواية

محمد الهرادي


منشورات الزمن



تصدر عن جريدة الزمن

المدير المسؤول : عبد الكبير العلوي الإسماعيلي

المشرف

سعيد يقطين

الإخراج التقني : حفيظة بوزيان

الإدارة والتحرير : 153، شارع سيدي محمد بن عبدالله رقم 7 ـ العكاري ـ الرباط

الهاتف + الفاكس : 44 98 29 7 3 212 00



الإيداع القانوني للسلسلة : 99/217

طبع : مطبعة النجاح الجديدة ـ الدارالبيضاء

توزيع : سبريس

الحساب البنكي : جريدة الزمن، البنك التجاري المغربي، وكالة أبي عنان ـ الرباط

رقم الحساب : 072E001182

روايات الزمن

2001

ديك الشمال

رواية

محمد الهرادي



منشورات الزمن

رواية

ديك الشمال

اعتقدت أن كتابة رواية قصيرة خلال أسبوع واحد أمر ممكن. فكرت في ذلك بعد أن أيقظتني قبيل الفجر ضجة أحدثها جرو جائع. يقول الولد هو من نوع البيرجي، وهو ما يعني أنه يصدق تلك النكتة وهي تحكي عن زواج شرطي مغربي بكلبة، أنجبت له فيما بعد جروا من سلالة البيرجي. أما أنا فقد كنت أعتبره مجرد مواطن كلب، ولذلك قيدته كي لا يحدث ضجة تطير نومي الخفيف، ومع ذلك أحدثها، تلك الضجة، واستللت من حلم غير عادي قرارا لا معنى له، مزدوج الهدف. أولا، أن أكتب عشر صفحات في اليوم، وثانيا، أن أمتنع عن التدخين طيلة ذلك، وهذا يعني أنني سأتحول إلى روائي، كامل الصفة، خلال بضعة أيام، وأيضا، سأبني لغيري منهجا عمليا قد يستفيد منه كل مقبل على قرار منع التدخين، وهما معا قراران خطيران في منزلة قرار الموت أو الحياة، أو على الأقل، أشبه بقرار الانفصال عن عالم كامل، من

أجل ولوج باب لا أدري ما خلفه، ولا أهمية لمعرفة ما خلفه، عالم جديد وكفى.

عشر صفحات. لا تدخين. البيرجي. القرار. ليست مجرد كلمات، إذ يمكن لأي فرد أن يقول : هذا نصف عقل مع نصف جنون. الكتابة ممكنة، لكن التدخين، كيف؟ والكتابة، ما الجدوى منها، ونقاد الأدب، بتحالف مع المحررين الحزبيين لا يتورعون عن استعمال البطاقة الحمراء، أو على الأقل، من أجل دعه يمر، دعه يعمل، إلى يوم القيامة، حيث يبعثون بألسنة مشقوقة، وبجباه وجنوب حسنة الكي.

علي بقولة ستالين، كما ذكرني بها علي يعتة ليلة أمس في برنامج تلفزيوني. التنظيم يكتسي أهمية كبرى بعد اتخاذ القرار، وسأضع من أجل سواد عيون ستالين هذا التنظيم لتدبير ما يكفي من مؤونة وعتاد، في المقدمة، خمس لترات من المياه المعدنية كل يوم، لعبة إلكترونية، بن وبسكويت وجبن، وأخيرا وهو الأهم، فتح مفاوضات مباشرة مع البقال، فربما يكون هو "الصانع الأمهر"، أو "الكاتب" الحقيقي لأدوات "وسيطة" هي نحن، في رغبتنا، وحاجتنا دوما إلى نظام للتبادل، بين الأشخاص، بواسطة السلع.

ـ لكن أين أنت يا علي يعتة من هذه الرغبات الخرقاء؟

لعل آخر ما أفكر فيه هو "الموضوع". الموضوع ليس سلعة تعرض ولا توجد موضوعات مهمة أو أحسن من الأخرى في الرواية.

ورغم الاستثناءات يبقى المهم دوما هو الكلمات، وحدها تستطيع أن تصنع حياتها المستقلة بعد أن تعبرنا، وعلى هذه الكلمات أن تعبر إلى ذهن هذا البقال نصف المثقف، بنظارتيه الطبيتين، وتحذلقه على طريقة شي وحدين، وأن تسبح في بحر السلع والأرقام بلا كوارث، لتقنعه بما لا بد منه.

أكان على هذه الرواية، منذ البدء، أن تولد بين تمرد جرو، وجدول حساب بقال، وأن تحمل في بطنها كل الزفت الذي يلوث الرئة، والصدأ الذي يطال الأيام؟

وضعت محطات صغيرة في برنامج رحلة الكتابة، الدرب الطويل الذي سيوصلني إلى النهاية المحتومة لا بد أن توجد فيه محطات، هناك تتقاطع مصائر، وتظهر وتختفي وجوه ويمكن أن تنظر إلى ظلك وإلى موطئ. قدمك، تجد كل ما حولك يتحول، لغتك نفسها ينبغي أن تلون هذه المسالك المتعددة لعلك تستطيع أن تمسك بيد الآخرين لتوصلهم إلى حيث يشاؤون. لا أحد يمكنه خذلانك، وأنت لا تنكر أن كل محطة هي مناسبة لتوليد الطاقة، حيث تراجع ما فكرت فيه، وتعيد ترتيب ما تراكم أمامك من كلمات... وأحداث.

راجعت هذه الكلمات واستغربت. لعل التفكير أرهقني وهاهي الحجة، كلمات لا معنى محدد لها وتصلح فقط لإعلان النوايا. وقد راهنت مع نفسي أن الأمر ليس نية أبدا، هو حقيقة فعلية

وتطبيق، مثل هذا المطر الذي يتساقط هذه الليلة، ومثل هذا الصداع في الرأس يجعل الذهن يتجه مباشرة نحو التفكير في التدخين، لا أعني التدخين الحرفي، بل حرفية التدخين المتمثلة في الحركة اللا إرادية لليد نحو العلبة، عملية الامتصاص ثم التهاب الجيوب الأنفية التي تستجيب في الحال، حتى الكتابة عن التدخين تجعله حقيقة ملموسة، وها أنذا أضع القلم وأنهض لجلب قنينة الماء المعدني.

ربما كان شاوشاو هو من أوحى بفكرة الاعتكاف، لكن عبده الثاني حين قال : كنت هادئا في البرنامج، وعينه مصوبة نحوي، يفحص أثر العبارة على وجهي، هو من جعلني أطور الفكرة وأحولها إلى إمكانية.

يستطيع المرء أن يحول الكلمات الصغيرة إلى قيمة هائلة، ذلك ما حدث معي، وهو الأمر الذي لم يفكر فيه عبده.

عبده الثاني لم يقرر سوى انطباع شخصي، تأكدت من ذلك بنفسي، ربما يكون هدوئي المبالغ فيه نوع من تستر وإخفاء لحقيقة أنني أكثر عنفا، هو نوع من عنف غير قابل للعلاج، فأمام كاميرا التلفزيون، مع كل ذلك الجيش من المتطفلين. ومواجهة مع نصف أعضاء الحكومة، بدا لي الأمر كله تمثيل سخيف، فكل هؤلاء الوزراء يدهم في التراب، والسلطة في ملك أصحابها، وحين

قلت للوزير في النهاية : يبدو لي أنك يتيم فعلا، ضحكت الحلقة، وفهمني الوزير فهما خاطئا. رد قائلا : ومع ذلك، لي أب، ولي أم..

الماء من جديد. يستطيع كأس ماء أن يخفف تركيز النيكوتين في الدم، وبشكل أو بآخر، يمكن نسيان ذلك الإلحاح المرضي على طلب الدخان لفترة قصيرة. الماء يطرد معه كمية ضئيلة من السموم المقيمة نحو الخارج، وكلما صب الماء بوتيرة معلومة، وبكمية كافية، زادت فرص التحرر من الاستعباد، الاستعباد المرتبط بالتدخين توجد فيه النار والحرائق، والتحرر هو جعل جدول صغير من الماء يتسرب إلى جسمك بانتظام كي يتمكن من طرد أعدائه وكي تكتشف أنك كنت دائما عدو نفسك، ربما هو نوع من التعبير عن الجسد الغروتسكي.

يتحلب الريق أحيانا بفعل الرغبة، البسكويت السكري مناسب على واجهتين، امتصاص اللعاب وتغذية الدم، ويمكن لكأس من الحليب قبل النوم مع حبات تمر أن يدعم إعادة بناء خلايا الدماغ والرئة. ستصير أيها الرجل وأيتها المرأة الناعمة نصيران للمستقبل، اقفزا على قرون كاملة من الجهل وتهيآ لاحتضان الخضرة اليانعة على كوكبكما الأرضي.. ألا تصلح هذه العبارة تميمة مدلاة على الصدور؟ أو تردد من مكبر صوت في الأماكن الخاصة بالمتعة؟

الماء والبسكويت. ونباح كليب يأتي إلي من الباتيو. واللعبة الإلكترونية أخفيتها عن الولد وحرصت ألا يراها لأنها أصبحت لي. واللوغو أصبح جزءا من لعبة الكتابة ووسيلة لامتصاص التوتر. حذار. قد تأخذ منك اللعبة وقتا ثمينا أنت في حاجة إليه.. لا تلمسها إلا عند الضرورة. اضغط أحيانا على الزر الأصفر لتشتعل الشاشة. اختر لعبة ملء الفراغ على المربع المستطيل واضبط سرعة العمليات. ستنبثق الأشكال من الفراغ ثم تتحرك نحوك بإيقاع الثواني. ضعها مصفوفة على بعضها وابن لنفسك التحصينات. جدران من المربعات السوداء. كل جدار يساوي مائة نقطة. تحصن أكثر واكسب النقط وانتصر على الآلة المهاجمة. تلك هي القاعدة. لا تخذل ذكاءك فانت تستطيع أن تقاوم لعدة دقائق قبل أن تحطمك الثقة بالنفس. الثقة العمياء.

أصبح الموضوع فرضية جاهزة، على الأقل، في خطوطه العريضة. ربما يكون شاوشاو هو أول من زرع البذرة، فحين حكى عن عنبر الموتى، ذات يوم، لم أستطع كتم عجبي. فمستشفى ابن سينا بدا لي كساحة خلفية لمعركة تدور في رأسي، وتخيلت وجه حارس الجثث يطل من ثقب في الباب الحديدي، وجه منتفخ من أثر النوم والكحول لا هم له سوى محاربة الجرذان السمينة وابتزاز الأحياء لاسترداد موتاهم، ومع ذلك قلت لنفسي : كل طريق

تبتدئ بالموت العفن لابد أن توصل إلى الحياة. كيف ذلك؟ ومن اي نقطة تبتدئ القصة لتتحول إلى نظام مقنع من الوقائع والعواطف والتداعيات؟ لا بد من التفكير مليا في الأمر قبل وضع الكلمات الأولى.

لكن وقتي ضيق، ومقتنع أنني إذا استدعيت المستشفى سأحاول في البداية أن أسترد جثة الميت، ستكون معركتي الأولى مع حارس عنبر الموتى، ومع الطلاسم الإدارية والطبية، سأسترد الجثة لتدفن في ارض الآباء والأجداد، لكن للأسف، لا علم لي حتى الآن باسم الجثة ولمن تكون؟ وهل هي ذكر أم أنثى؟ ولا علم لي بالطريق او باتجاه الطريق الموغلة في تخوم القبيلة. لا علم لي بالحب الذي قد ينشأ وسط حديقة الموت هاته، يزرع بذرة الحياة في تربته الخصبة السوداء..

- هذا موضوع سينمائي.. لم لا تكتبه؟

قالها زهير الذي قدمه لي البحار باسم الممثل البواس. علمت فيما بعد أنه باس الممثلة فتو ألف بوسة حين الإعداد لفلم حب في الدار البيضاء. طبعا كنا نحتسي البيرة في ألاسكا قرب الكنيسة، وكلما أضفت كلمة في الحكاية يضحك البحار ويوافقني على التحبيك كأنما انتزعه نزعا من لسانه.

وقتها البحار كتب رواية توجد فيها عدة أشياء لا أدري هل لها معنى. (ولم نبحث أصلا عن معنى؟) هو يدرك ذلك تماما ويوافق عليه، لكنه كتب صفحات ناقصة لكن جميلة عن مقبرة يهودية

يحتمل أن يكون فيها كنز، أكوام من الذهب الخانز، وكنت قد تتبعت أمر اليهود وكنوزهم في الحوز وقرى سوس، ولذلك ملأت الآذان تلك الظهيرة بالحديث الصحيح والأخبار المختلقة. هذا ما يحدث في مثل هذه الأحوال عادة. لكنني رجعت إلى الصواب حين حكيت قصة نقل جثة المرحوم إلى بلاد جبالة، وما جرى للسيمكا مع الجندرمة، وما حدث للعزري، سائق الفرقاطة، كما سميناها، مع المرأة والميكانيكي، والشيخ، وولي الله سيدي بومغيث.. لم يتكلم العزري فقد كانت عيناه تخاطبان تلك الجبلية الشبيهة بالخوخة.

ترى ما هو الحب غير أن يكون نظرة صاعقة تطحن وتحرق؟

لكن القصة كما رواها شاوشاو كانت شيئا آخر، نوعا من عبث قد نصادفه حين نراهن على معاملة الدنيا معاملة جدية، ورغم أنني أعرف بعض أجنحة المستشفى بعد تجربة الإقامة هناك لأسابيع، رغم ذلك، لم أتصور وجود جناح في الطابق التحت أرضي يسمى مستودع الأموات.

أعلم أن الموت في أي مستشفى هو نصف المعرفة والجهد، وهو اعتراف صريح باقتسام السلطة بين عزرائيل وأبوقراط، لكن أن يجعل المهندس مكان الموت أسفل سافلين، في الطوابق الدنيا المعتمة فإنه يكشف عن نظرة احتقار للجسد الميت ولعزرائيل السماوي. الموت ليس جسدا مدفونا في قاع الهندسة، هو أيضا

صعود للروح، بل صعود خفيف ومرح وظريف لا يدركه إلا من اقترب منه، وأنا اقتربت منه كثيرا ذات يوم.

من بين ما تبقى لي من تجربة الموت ذكرى آخر يوم. رمموا عظامي المكسورة على فراش خشن وخاطوا أحشائي بما تيسر، جاءني مسؤول حزبي ملتح لم يتوقف عن حك دبره واستنطقني، ثم أفهمني أخيرا أنني لست الضحية. لم يفهم أنني غير قادر على الكلام والبوح بأسرار شخصية، ومع ذلك أومأت له نعم، أنا المجرم، وشعرت بسرير يراقبني، أقصد شيئا على السرير، تلفت بصعوبة. وبرهنت تكويرة الشيء المغطى أنه جسد ميت، لكني لم أهتم، أنا أيضا ركبت عربة الموتى وفي طريقي الآن إلى ذلك المكان الضبابي، أغمضت عيني كي لا أرى المسؤول الحزبي، أستحق الموت كي لا أراه في الفجر التالي.

في الغد، اكتشفت أننا وحدنا في القاعة، أنا والجثة، حاولت أن أثبت لنفسي أنني حي، وتكلمت مع "الميت" : على سلامتك، وتم ماهو مطلوب من جثة، في البداية سمعت ضحكا خافتا، أمر لا يصدق، ثم ضحكا عاليا بعد أن أزاحت الجثة عن وجهها الغطاء، وتأملت هذا الوجه الشاحب، المليح التقاسيم. كانت فتاة في حوالي العشرين أو أقل، لم يجدوا لها مكانا نظيفا في جناح النساء فوضعوها في غرفة الترانزيت، قريبا من "الأستاذ"، كما قالت.

وقالت لدي المصران الزائد . أنظر . ورفعت الغطاء فبان معظم جسدها العاري، المصنوع بدقة، والممتلئ شبابا، وكادت تفضحني لأنها لم تتوقف قط عن الضحك حين قلت لها اقتربي أيتها الطفلة، وحين قلت لها ادفعي بصدرك قليلا حتى . حتى وحتى . وحين قلت لها حذار، سيتمزق هذا الجرح اللعين وقد تمزق، لكنني حين قلت لها في النهاية ما اسمك، توقفت عن الضحك ورمقتني بجدية، وقالت : لن أقول لك .

البوسة الوزارية لا تشبه بوسة برلنتي عبد الحميد . قالها الغرندوق . صحيح أن برلنتي في عز شبابها كانت تعرف سر الصنعة، بل حقيقة من يعرف سر الصنعة هم أصحاب الحال الذين استثمروا لون الكمثري على شفتيها وحولوه إلى تقليد حضاري تعتز به كل الفنانات، ولذلك تراهن على الشاشة يبحلقن مباشرة في عينيك بينما شفاههن ترتعش من اللهفة أو من العطش، وربما يوجد تخصص في فن الماكياج يجعل الشفاه تبدو متشققة، مكتنزة ومعسلة، كالكرموسة الناضجة، وهو أمر يجعل الفتى العربي يخرج عن طوره، أوممسكا بزمارة رقبته المتطاولة .

كتبت هذه المقدمة لتكون معي أيها القارئ في الصورة، فحين صعدنا، أنا والوزير، السلم الحلزوني إلى غرفة الماكياج، تبسمنا لهن، للعاملات، والتفت إليه وقلت : تفضل . وقال هو تفضل أنت الأول . وأومأت إلي الأخت الماكيير وقالت : لاتتردد أنت الأول .

استسلمت أمام ابتسامتها المتسامحة، أجلستني أمام العدة والمرآة وأغمضت عيني. شعرت بعجاجة غبار توضع على صلعتي، والمسحوق الأبيض يتخلل مسام وجهي، ثم فتحت عيني، وقالت : انتهينا.

وقتها كان الوزير يلقى عناية خاصة، استمرت لعبة الألوان على وجهه بضع دقائق نهض بعدها نشيطا، وحين حاول لمس وجهه بعد ذلك منعته الماكيير وقالت : ستفسد الماكياج، سيدي الوزير. نزلنا واجمين نحدق في المرايا المزروعة من جانب ولا أحد يعرف ما الذي حل بالآخر، ودخلنا الصالون الصغير المخصص للضيوف وأتى المدير العام ليسلم مع ابتسامة تتسع ولا تختفي، ثم، بعد ذلك، تسلل إلينا نصف أعضاء الحكومة، واحدا بعد الآخر، كانوا يلقون رفيقهم الوزاري بالابتسام أولا ثم يرتمون عليه لمحاولة احتضانه، وكلما همّ أحدهم بتبويسه كان صاحبنا يتراجع قليلا إلى الوراء ويدفعهم برفق : لا تفسدوا لي الماكياج. ويرددون متسائلين : الماكياج؟ ويعم الضحك، جن جنون الحكومة من الضحك، وحين جاءت نوبة وزير عجيب قيل لي إنه من حوز مراكش، أصر أن يبوس الحليف الحكومي. كان يردد : لن أفسد لك الماكياج إذا بستك من الفم، وتأملت هذا الفم، وفم الآخر، وأفواه الجميع، وقلت : انظروا إلى فمه، وعاينه بالنظر كل الشلة، وضحكوا معي. وصدق الغرندوق بعد ذلك حين قال : البوسة الوزارية لا تشبه

بوسة برلنتي عبد الحميد، وشتان ما بين الوزير باحماد، وباحنيني، وبا ادريس مول الضوصي، فقد كانوا لا يطمعون حين يشتط بهم الخيال وتتوق نفوسهم إلى التبويس سوى في تقبيل الحجر الأسود. ربما.

وقال شاوشاو حين سمع ذلك : إنهم ظرفاء، ولم أفهم، وقال : هذا مغرب آخر، مغرب المال والأعمال والخلان وحقوق الإنسان، مغرب البورصة والانفورماتيك، مغرب الفتيات الرشيقات في المكاتب المكيفة، مغرب المتحررات جنسيا والسحاقيات والنسوانيات مغرب عويطة والأوطوروت والبطاقات البنكية، مغرب الهمبرغر والتمقليع، مغرب المشاكل القطاعية والحلول الجاهزة، مغرب الكاط كاط والحلاقة الأمريكية، مغرب رقمي، رياضي، وتحليلي. مغرب خرج من جلبابه كما خرج عفريت القنديل من القمقم ليلبس القميص النصف كم وربطة العنق على الطريقة اليابانية، مغرب الشبان الصغار البراجماتيين والمستعدين لعمل أي شيء بمقابل حتى الأمور التي على بالك، مغرب التلفونات المحمولة وعشاء المطعم الصيني في نهاية الأسبوع، مغرب الحسين السلاوي وعبد الحليم انقرض يا أخي، مغرب الفقيه البصري أصبح في ذمة التاريخ، وها أنت ترى أننا آخر الموتى نعامل معاملة الديناصورات المحنطة في هذا الزُّوُو المسمى المغرب، ارفع أشرعتك

وارحل إلى كتابة الرواية، هي العمل الوحيد المسموح لك فيه بإنشاء الطوباويات.

عادة ما أنظر إلى دوافع الكلام وليس إلى الكلام في حد ذاته مهما كان دقيق التشخيص، وعجبت لنفسي، وقلت : لم لا تصدق ما يقال؟ هل الوجه الآخر للصورة هو الوجه الوحيد والصحيح الذي يقاس عليه؟ هل أصنع لنفسي دورا من منطلق الفشل، أم أنني، في النهاية، لا أقاوم، في العمق، سوى هذا الفشل وهذا الشعور باللاجدوى والإحباط يتشبث بي في كل خطوة؟

التدخين مرة أخرى يحاول أن يستردني إليه، ولكن تنقية الدم بالماء لا تكفي، كما يذكرني كأس الحليب قبل النوم بعادات الأطفال المدللين، أحتاج إذن وأيضا إلى بعض الفيتامينات، خصوصا فيتامينات B كي تستعيد الخلايا العصبية تماسكها، ويترمم الكبد بعد طرد السموم، الماء وفتامينا B ممكنان، لنجرب قبل أن تتجمع زوبعة التدخين أمام عيني، إذ ربما تتحول إلى إعصار كبير يفجر دماغي طلبا للجرعة المعلومة. لكن من أغلق باب البيت من خارج وفتح قنينة الغاز ليميتني خنقا. أهي الجاثوم؟

اللعبة الإلكترونية هي الأخرى تمارس نوعا آخر من التخدير، بعد

أن ضغطت على الزر الرقمي المؤدي إلى لعبة "الشيطان الأصفر" راهنت مع نفسي أن أقاوم اللوغو وأن أجعل درجة التركيز الذهني لدي متواقتة مع ردود فعله، خصوصا حين تنبثق الأشكال الهندسية لتتخذ لها بعد ذلك مسارا في قاعدة المدخلات. صحيح أنني قمت قبل ذلك ببعض التطبيقات لاكتشاف قواعد اللعب. وأنني حين شرعت في المقابلة كان دماغي يشتغل في عوالم ورؤى بوذية، وما زالت كلمات صغيرة تنبجس بجنون وتدور على نفسها كهوام الغابات الاستوائية الدقيقة حين ترقص في نقطة ضوء معزولة.. والمكان صامت. وأنا نفسي غائب حتى لاحظت اللوغو أمامي يدعوني إليه بغمزة إيقاعية لا تتوقف من مؤشره الرقمي الذي يعني أنه يشتغل. وقلت: هاهو الدماغ الصيني أمامك، الأمر أقل مما توقعه بوذا، ولكنه لو بقي حيا لجعل من اللوغو دليله إلى النرفانا. وفتحت برنامج "الشيطان الأصفر".

في الحقيقة يصعب وصف ما يجري حين مقابلة الآلة. البشر ليس آلة، والآلة شيء حقير وتافه لأن البشر هم آلهة الآلة والآلة هي التي تعبدنا وتستميل عواطفنا وتخدمنا بعماء ونكران "ذات".

حين أعامل الآلة فإن ذلك يشبه معاملة حيوان أليف ضيق الأفق، يفكر بخطية مرسومة لا يستطيع تجاوزها وإعادة بنائها إلا في الإمكانية المتاحة له أمام رياضة الاحتمالات الرقمية.

أعامل أعصابا كهربائية تحركها عاطفة الأرقام في مقابل عاطفة البشر، تماما كمداعبتي لكليب. تستطيع هذه المداعبة أن تهبه شجاعة العض المحايد، لكن عض اللوغو يتمثل في سرعته المدهشة، وعلى دماغي أن ينتظم مع هذه السرعة والنهش الإيقاعي، وأن يتحرك في الاتجاه الصحيح، مع أنني أعلم أن كل جدار كهربائي أشيده بمساعدة اللوغو هو حصانة وهمية أبنيها لكسب النقط التي يمنحها لي الزمن، وأيضا لدرء خطر محدق بي كل لحظة، دون توقف، دون هدف، وحتى النهاية.

الجاثوم شاردة مع الفراخ، نوع من حب القطط الجائعة لأبنائها، في البداية تمسح فراءهم بلسانها الخشن، ثم تلدغهم بأنيابها انتقاما لجوعها الحيواني. أخاف أن تبتلع الإثنين الباقيين كما ابتلعت الفرخ الأحول بعد ولادته. الجاثوم لا تشبع من الدم اللذيذ دمها. ربما أمنحها نسخة من كتاب الهورلا لموباسان. الحريق الكبير قادم.

كليب يدعوني إليه بلغة الأنين. أعرف أن الجوع الأحمق يمزق أحشاءه. سأنهض من فراشي كي أستقيل من التفكير في مشروع غير مؤكد. وسأبحث عن حبة بصل وبقايا لحوم وعظام وآخذ كمية من الرز واستحضر كل مهارات الطباخين لأحضر وجبة لائقة بكلب مدلل ينتمي إلى الطبقة الوسطى. أحيانا يترجم هذا التدليل

بوضع قليل من الزيت البلدي وبعض البهارات والترنّم بأغنية.
وأفكر أحيانا: لم لا أربط الاتصال مجددا بالطنجاوي لأقول له، وجدت لك رفيقا طيبا لجوبا العجوز، لكن حذار أيها الطنجاوي، بإمكان كليب أن يسقط الطائر المسمى فولفغانغ أما ديوس موزار من السماوات العلى.

ولم نفكر طيلة الحياة في مشروع رواية مستحيلة لا تتحقق مع أن الكثيرين يكتبونها كما تكتب تعويذة الحمى؟ حالاً يمكن أن أحرك العزري صاحب السيمكا ليرافق الأم وبنتها الخوخة إلى مستشفى ابن سينا. ستطرق الأم بابه باكرا وستنتظر البنت النتيجة في باب العمارة. سيقول لها هو مستعد، على بركة الله، وسيمنعها من البكاء حين تمد له الفلوس المصرورة وربما جمعتها ورقة ورقة طيلة حياتها، سيقول لها ليصانص على حسابي أما واجبات تسليم جثة المرحوم فسنأخذها حسب رغبتك من الصريرة، هاهي لك، خذيها وخبيها في شونك.

حين ينزل مشوش الحالة وناقص النوم لن ينتبه إليها، إلى الخوخة، إنما نظر إلى إطراقتها في المرآة ورأى عينين تشبهان عيني مريم البتول، مريم، كما رسمها في ذهنه غير المسيحي، وقال: ماشي شغلي، هذه قديسة كما يبدو وأنا أميل لمصاهرة إبليس. شد بيده على المانكو وضغط قليلا إلى الأسفل ودفع به قليلا إلى الوراء

لتمر السرعة الثانية. ما أصعب فيتاس السيمكا اللعينة، تمنحك الشعور أنك ملكت فعلا سيارة خردة تستحق التضحية بها، أما الحزن الجميل في العيون البتولية فهو أمر رباني ، يهبه لمن يشاء يا إبليس، وبافليس.

يمكن للحكاية أن تنطلق مجددا من عنبر الموتى، سيهمل الراوي قضية العساس الذي رفض وقوف السيمكا في الكاراج والطبيب السكران وحمق موظف يرتدي زي الف. بي. أي حين فحص الأوراق وطرح أسئلة المربع الأحمر على الخوخة المذعورة وسيهمل الطوابق السفلى والرائحة المريبة للجثث وسيمر من دهاليز مظلمة وممرات عطنة لم يتخيلها أورسون ويلز وسيصل متقطع الأنفاس أمام الباب الحديدي الصدئ للشيء المدعو عنبر الموتى أو قسم المهملات إذ سيعلم إذ ذاك أنه تحول من كائن آدمي إلى مشروع حيوان لزج لبق يزن الكلمات كي لا يتقلق حارس الموتى ويجرح مشاعر المفقودين من شدة الحزن أمام موتاهم والشكوى لله بينما ذباب سمين يتسرب إلينا من طاقة الحارس خصوصا حين يفتح ويطلب الفتوح وسترة الميت ونحن نعرف أنها تضيع في طريقها إلى المرحوم أو حين يقول لنا هذا الشاريو لكم مني إليكم هدية ولو أني لا أطلب الباروك لأني أراكم زوينين وأولاد ناس فلا تبخلوا علينا إنما الخطأ خطأ المسؤولين كل يوم يدفعون لي عشرات

الجثث من سربيس التشريح وأنا أشتري ماء جافيل من جيبي بينما طلبة الطب ينهبون العيون والعظام والقلوب وأنا عمري أقضيه هنا مع المساكين ولو أن بعضهم لا يفهم مشاكلنا وإذا قلت له اسكت وسد فمك وتوكل على الله واذهب إلى الصندوق وخلصهم ثم اشتكي إلى الوزير وادفع حق الدولة أو ندفن المرحوم بمعرفتنا في قبر مجهول ومصلحتك أن تدفع لأن اليوم هو آخر أجل وكل يوم زيادة هو زيادة ومع ذلك لا يفهمون بل يقللون الحياء والمعقول معقول وهذا الشي الذي أعطيتني من فلوس الشريفة لا ينفعني لأنه ممنوع علينا أن نسلمك الميت لتنقله بمعرفتك من إقليم إلى إقليم والله يهديك اذهب إلى العمالة أو خل الناس تقضي الأغراض. فالوقت يضيع وأنت تضيعني في رزق الأولاد وهذه مغامرة صعبة وأنا لا أعرفك ولا أعرف أين ستذهب به وعلى وجهك أقوم أنا بكل هذا لأنك مون بلاد ومون فرير يا العزيز. يمكن أن نهمل كل التفاصيل الأخرى فلا ندق أبواب المكاتب ولا نقف في الصفوف ولا نلتفت إلى سوق درب غلف الآخر هنا ولا نتخطى الأجساد المحترقة والمبتورة والنافقة والموبوءة وما عافه السبع، لن نتكلم عن المتسولين وسماسرة التحليلات وطبيبات التّالون والماجورات اللواتي يستحقن لقب ملكات البنسلين المعكرات المحرقصات الشرسات الدافعات بصدورهن دوما إلى الأمام وإلى الأمام قف، لنهمل إذن كل ذلك بما فيه جناح السجناء الذي

تصدح فيه أغاني فيروز عن العودة والقدس وفوق صوتها أو تحته لا أدري صوت الشيخ كشك يكفر ويهاجر إلى الله ويرسم حدود الجنة والجحيم على مقاس الوقت ومواطن مسكين مقهور يبكي معلقا على حافة نافذة في الطابق الخامس لا يدري أيبكي على نفسه إذا رمى بها إلى الموت أم أسى على جنات عدن فيما نسي حقا من رآه أنه مستسلم لشعور حاد بالعجز واليتم بعد طبيب ابن العائلة المتكبر الذي رد إليه التوصية الغالية وقال له : انطح الحيط.

لنترك كل ذلك بما فيه كل الديكور الذي تؤثث به الواقعية الرثة معبدها المقدس ولنتأمل هذه الوداعة الرقيقة على وجه الخوخة البتول وقد أفقدها الحزن لسانها وعقد ما بين حاجبيها المقرونين حتى لتخال أن العالم كله مجرد وهم وقبض ريح لا قبض ريش ولننصت إلى صوت الراديو داخل السيمكا يقدم النشرة الجوية : سيداتي سادتي. طقس حار. ضغط منخفض. رياح شرقية.. بينما أنهيت للتو وضع الجثة في المقعد الخلفي بمساعدة رجال رماديين لا أدري من أوصاهم بي. قلبي يكاد يتوقف كلما لمستها، هي، وعيناي يلتمسان في عينيها بعض التشجيع، هي، بينما الحاجّة استسلمت للنوم بعد عبورنا قنطرة مولاي الحسن رحمه الله.

الحياة السعيدة تبتدئ من هنا في نظر شاوشاو، من قنطرة مولاي الحسن في اتجاه أوطيل كندا، كناية عن السجن المركزي بالقنيطرة، لكن با المعطي، عكس ذلك، يرى أن الحياة السعيدة تبتدئ بالإنصات لأغاني فريد الأطرش وتنتهي ببناء سجن جديد. يقول لك : أنا بنيت سجن سلا، مركب عصري وصرح متقدم يشرف سجون الدولة. خلصتهم من أوطيل النخلة، تلك القلعة البرتغالية الحقيرة الرطبة المقيتة العفنة الموبوءة المطلة على البحر الذي لم يعد يتقبل مزيدا من خراء المواطنين، ولم يفهموني في المعارضة. كنت في المعارضة دوما ومثلتها طيلة حياتي خصوصا أيام الكرسي الأول والثاني والثالث والرابع إلى آخره، لم أكن أخاف أحدا ولا يخيفني شيء لأنني يوميا أتغذى بالصواب وأتعشى بالصواب. ماذا يريدون مني أكثر من ذلك؟ وماذا ربحت من ذلك؟ والفلوس؟ وهل الفلوس لها قيمة بلا صحة؟ ها ها ها...

وجاء جرسون وقدم إلينا عصير برتقال، لم يلمسه با المعطي،

وإنما دخل ممرض ثخين واستعد لحقن المريض الذي قام متثاقلا يفتح أزرار سرواله، وتسلل إلى القاعة. أسفٌ شبيه بالأسف حين يشعر به رجل يقلع أسنان تنين وقع في الشرك، وجابت عيوننا أرجاء القاعة متجاهلة ما يجري ؛ ثم سقطت النظرة على أكواب العصير المرغاة، وعدنا من جديد إلى تحصيناتنا الداخلية نضع كفا على الأخرى أو ننقر حافة المائدة بأطراف أصابعنا، ثم قدمت إلينا القهوة على الطريقة الفرنسية وعاد المريض يبتسم في وجوهنا ليعتذر بالمرض الذي هو كلمة السر. وأومأ لأحد الأشخاص وأفهمه بإشارة أن يغادر المكان، ثم التفت إلينا بتلك البهجة الفرحى حين تبدو على مريض خرج من مصيدة الموت وقال : من يتذكر منكم الأفلام الأولى لليلى مراد؟ لاستيفان روستي؟ هل استمتعتم بأدوار عباس فارس، فاطمة رشدي، وفريد، نعم فريد الأطرش، أو وحيد كما يسمي نفسه في السينما؟ عبد ربه يشبه وحيد ولكن حاشا أن تكون السياسة نوعا من السينما. وحيد هو القلب والعاطفة والضلوع والكأس حين تنتفخ بالحب والمتعة والفرح والكلمات حين تحرق خلفك الطريق والجسد حين يتعرى في الرصيف وأنت لا تملك غير نفسك تعرضها أمام الخالق الذي وهبك الحياة وزين لك متع الدنيا وقال لك سر إلى الأمام وقد سرت إلى الأمام أقطع كل الحبال التي توثقني بما فيها حبال الاشتراكية والشيوعية والأوليغارشية والفوضوية وكل المذاهب لأخدم البلاد وكي

لا أكون خروفا في دكان جزار أنت تعرفه .. هل تعرفه أم أنت منهم؟ وغطى سؤاله بابتسامة ملفوفة ببقايا تسامح بدا على فمه المطوط الشبيه بفتحة البزطام.

أخيرا أطل علينا موظف الاستقبال الذي يتحول أحيانا إلى مقدم نشرات الأخبار. قال : حان الوقت، أستاذ، تفضلوا معي إلى غرفة الماكياج. وتساءلت : أين شادية الآن يا ترى لتسمع وترى، ولتكون قريبة منا جميعا ومتحكمة في وحيد القرن العشرين، قبل أن يتهاوى البناء تحت أضواء البلاتو، وأعين المشاهدين الذين يستحيل عليهم مَدُّنا بكأس ماء بارد.

يعرف المتفرج أن با المعطي لا يسمع كلمة ولا يخاف أحدا سوى صاحبة العصمة، تماما كالسيد هوندا الياباني الأصل والفصل، خصوصا حين يشبه نفسه بالأرنب العداء، يجري ويجري وراء الآخرين من نوع السلاحف الصناعية الثقيلة، أي وراء الشركات الأمريكية والألمانية، يجري لكسب السوق ولكسب سمعة تتجول في كل العالم بمحرك يفوق الوصف، وسواء في أولاد حدو أو في غيرها، فإن السيد هوندا استطاع أن يقنع الجميع باقتناء اسمه كما اقتنى من قبل أولاد سيدي بليوط وبن جدية اسم فورد، ليس فقط من أجل إقبار شعار أولاد حدو، كلها وعودو، بل لجعل اللحاق والسرعة متساويين في الربح والخسارة.

هاهو السيد هوندا بإيعاز من زوجته الصلبة يقلل من سرعته ليجعلها مساوية لسرعة الآخرين، أي بالنسبة لسرعة الأمريكان، لكن با المعطي، عكس السيد هوندا يخفف السرعة كي يسير وحيدا، ربما بجانب فريد الأطرش، ربما بجانب حافة يعرف المتفرج أن لافتة كتب عليها بخط هجين "ممنوع التبول" موضوعة هناك، وربما كان مثل يوسف الذي فقد يعقوب بصره شوقا وحنينا إليه، فيما إخوته أصيبوا بداء الغيرة، يصفقون ليوسف بشكل جماعي، ويتمنون من صميم قلوبهم، في نفس الوقت، أن يجلسوا مكانه، مع أنهم لا يعرفون فريد، ولا يأكلون الثريد.

ولكن الأمر أشبه بحالة قطة محاصرة في الزاوية.

أقولها لعبده الثاني، فحين تحاصر قطة في الزاوية تأكد أنك ستحولها إلى وحش مفزوع اكتشف تعبير القتل في عينيك. القطة تعرف نواياك وقسوتك واندفاعك الأهوج نحو الانتقام الذي ورثته عن أجدادك حين جعلوها آلهة أو شيطانا لئيما. تعرف أنك تنظر إليها كعدو وجاهل بحقيقة جسدها المناسب ولذلك لا تكذب القطة ولا تصنع لنفسها الأوهام ولو قامرت وراهنت ولبست قبعة الساحر. القطة أشبه بإله لا يتوقع منك غير الولاء والطاعة منك أنت الآدمي، وحين تحولها إلى طريدة تقتفي أثرها مثل رهط من الكلاب المجعورة تدق حولها الطبول وتحمل الهراوة

مقطوع النفس لتربيتها أو لتعيد تربيتها أو لتنفخ فيها من روحك الآدمية، فتأكد أنك تراهن على دفن جسدك في الخلاء، عيناها تطلبانك، وأنت تتعثر وتتقاذفك أفكار مبهمة، لا تحاول إذن قتل روح واحدة منها لأن الأرواح الأخرى قادمة مولولة مزمجرة كرعود مبحوحة تنادي الظلام وتتصادى مع روحك الهشة. ألم يكن السيد هوندا يشبه هذه القطة بالذات، بعد الحرب؟ ألم يكن شاوشاو يقرأ الفال ويعيش نفس الوضع في أوطيل كندا أو حين أقام مدة في فيلا درب مولاي الشريف؟ ألا تفكر أنت أيضا أن تتحول إلى قطة محاصرة كلما فكرت في كتابة كلمة عن نقاد الأدب الذين تحولوا إلى رواة وعرين يتوسلون دريهمات التلاميذ؟ لكن من منكما الهر ومن منكما حامل الهراوة؟ وهل يستطيع الناس أن يهربوا من جرحهم السري الذي ما عاد سراً خافيا على أحد.

هكذا تسلمني اللعبة الإلكترونية مرة أخرى إلى جوني ووكر. أضغط على القرص الأحمر فيظهر جوني على الشاشة يمشي مرحا مستقيم القامة نحو البئر ـ الفخ. أضغط مرة أخرى فيتحول اتجاه مشيته إلى الوراء كأنما الرجل دوما في وضع استعداد. جوني تجاوز الصدأ والمرض يعيش في قانون اللعبة بلا مفاصل ولا مشاعر تحركه جذوة ضئيلة شبه منعدمة من تلاقح الإلكترون السالب والموجب. لكنه هذه المرة ينزل سلما قصيرا من أربع درجات ويترك وراءه صففا

من الأشجار المقلمة تبدو في الشاشة بلا روح وبلا سماء تغطيها، مباشرة، بعد نزوله السلم نحو الممر السفلي يظهر أسد في الزاوية، جوني والأسد يتجهان نحو بعضهما، بل قل إن الأسد هو الذي يتحرك باتجاه جوني فاتحا درغومه دون أن يحدث أي صوت غير صوت النبرة الإيقاعية للعبة. أسد مهاجم بلا أنياب ولا زئير وجوني الممشوق القامة يبدو ومثل دمية عمياء تقودها أطراف أناملي حين تضغط على زر اللعبة الذي له شكل قرص بلون أحمر. أنا هو جوني أقود نفسي إلى درغوم الأسد المصنوع من شارات كهربائية. لكن سرعة الأسد المزمجر برمجت كي تكون أسرع من خطوات جوني. تجمدت خطوات جوني وعاد مهرولا نحو السلم، وقبل أن يتسلق الدرجات الأولى يكون الأسد قد التهم قدم جوني. جوني الأعمى والأعرج يتقافز الآن، وكل ضغط على الزر يجعل قفزه عاليا عاليا باتجاه حافة البئر دون أن يكون هناك أحد لإنقاذه وحيث هناك مصيره المحتوم، وهناك أيضا في الممر السفلي تنفتح الهوة مجددا لتتحول قبرا عميقا يختفي فيه جسد جوني الرشيق. لا مجال الآن للهرب. لا فرصة الآن أمامي لإنقاذ جوني ووكر من الموت. لا فرصة لدي لإنقاذ جوني، القابع في داخلي، يخطو بمحاذاة جوني الآخر، المرسوم على القنينة الذهبية.

وهي لحظة مناسبة للتفكير في رقتها يا هذا الرجل. استدعها بكلمة منك تكتبها على الورق لتنفتح أمامك الجنة، أو على الأقل

لتلقي التحية : صباح الخير. ولتفوز بتلك الهزة الأرضية لأنها لا تستطيع أن ترد التحية بغير عينيها. لاتتهور ولا ترهبها بتصويب نظراتك أنت مثل متسول جائع ولا تتوقع منها أن تقول لك كلمة. هي من النوع الذي يتركك هناك تذوي أو تتسكع ببساطة في دروب ذاتك الخالية، أو تقع بضربة واحدة مفاجئة بين يديها لتعبد عينيها طيلة حياتك. هي الآن محرابك وصلاتك ولسانك المبتهل ودمك الذي ينبض وأنفاسك المخنوقة بالنيكوتين والقطران. انس جوني ووكر واكتب كلمة فقد عبرت الآن قنطرة مولاي الحسن وبعد قليل ستجتاز باب الريح والتسريح، ومن المؤكد أن الجثة النائمة في المقعد الخلفي تقرأ أفكارك، فانظر عبر المرآة العاكسة إلى عينيها المتورمتين من البكاء وادع ربك أن يمنحك الصبر لتقاوم أنت بكاءك الداخلي.

ولكن ناني ذات الأربع والأربعين، وهي سن بالنسبة إلى حيويتها الجنسية تقع بين الربيع والخريف، تابعت القول، ونحن في شارع ابراهيم الروداني لننس البرنامج التلفزيوني مسيو، توقف بنا مصطاف وهات السجائر وجرائد الحكومة. والتفتت نحوي : هل تشرب البيرة المكسيكية مسيو؟ وتكلم هاني نيابة عني : باستطاعته أن يشرب البحر. وأضفت أنا : والأنهار. وعلقت هي ضاحكة : أنا اليوم فرحانة بمعرفتك.

توقفت المرسيدس البيضاء ونزل مصطاف، وكنا قد عرقلنا السير حين توقفنا تقريبا وسط الطريق، ولذلك فاجأتنا أبواق السيارات الغاضبة، وقالت ناني : بإمكاننا أن نلغي هذا الشارع من خريطة المدينة، لكن لا ينبغي أن نقطع الطريق بهذه الطريقة، وصاحت : مصطاف.. ونزل هاني وعاد مع مصطاف الذي يضع الآن تحت إبطه لفة جرائد. وقلت : هذه حكومة بلا صحافة وبلا أفكار، وقاطعتني : باردون، قلت لها مجددا هذه الحكومة تحتاج إلى أحزاب حقيقية. ولم ترد. طبطب هاني على كتفي مواسيا : اجمع أصحابك وسنكوّن حزبا جديدا، حزب المستقبل. حزب الشباب..

مدت ناني قدميها على فخذ هاني الذي التقطهما بحنان وتأوهت مثل عذراء حاصرتها الإشاعات ثم تكلمت بين الأنين الجائع في صوتها : كونوا جديين مرة واحدة في اليوم، يكفينا هذا العدد الكبير من أحزاب المستقبل عندنا. قلت : ربما يفكر هاني في تأسيس مقاولة صغيرة فيها كل شيء، فيها الصحافة، وفيها النشاط، وفيها السياسة الداخلية.. وصمت الجميع حين نطقت بكلمة "الداخلية"، ولكن مصطاف كان قد انعطف خارجا من شارع الزرقطوني نحو الزنقة المشجرة حيث الفيلا في انتظارنا. مكسوة بالغموض الذي يمنحه الثراء، يكشفه صحن التقاط هائل

موضوع على سقفها المنخفض المتواري خلف أشجار هامدة، تنتظر هبة نسيم في هذا المساء البيضاوي المليء بالمفاجآت.

وعاد الصداع إلى الرأس من جديد جعلني أدرك الزمن على شكل مادة سائلة، وباغتتني تلك الرغبة في النوم حين يشعر بها المنقطع عن التدخين وقاومت. وقلت لنفسي كلا. ومن اليسير الآن أن أقوم من الفراش لأطوف بين المطبخ والحمام والباتيو وغرفة التلفزيون والمكتبة ووسط الدار أكنس وأخمل وأبحث عن مكامن العناكب وبيض سراق الزيت وشقوق الخشب حيث معاقل النمل ولأصلح الحنفيات المزكومة عوض الاستسلام لغفوة أو لسبات عميق كما يقال، ومن الممكن أن أتهندم على آخر ذوق وأبحث عن مكان ما أذهب إليه عوض قضم قطع البسكويت من نوع هينريس العادي وشرب الماء المعدني على الريق والتفكير في مواقع العمليات الجديدة لكليب حيث يضع تلك الفواصل السوداء والبيضاء من شيء اسمه خراء الكلاب الغني عن الوصف، ولكن الصداع المقيم في الرأس أخذني واشتراني ووضعني في جيبه ودار بي ودرت معه وحملني ثم رماني في دوامة دوخة لا تحتمل، وقمت أنقب في بقايا علب الأدوية التي لا مكان محددا لها وأنا أزعم لنفسي أن طريق إشعال سيجارة هو نهاية هذه الآلام الشاقة المؤبدة، وقرأت ماهو مكتوب على علب الأدوية من بيانات

واحتياطات ونواه. صداع الرأس، وجع الأسنان، وجع العصب، وجع الحيض، ألم البطن، اعتلال المفاصل، حالات النزلة الوافدة، الشقيقة، الإرهاق، الروماتيزم، يستعمل في حالات الهزال والتعب أيا كانت مسبباتها، مقوّ نفسيا وخال من السمية، يستعمل في حالات الضغط المنخفض وقصور القلب مع الجهاز الدوري، مجدد للحيوية في حالة الصدمات والهبوط الكلي، يزيل الآثار الثانوية للعلاج بالأدوية المنشطة للأعصاب، لكن حذار أن تستعمله في حالة ارتفاع الضغط الشرياني، وفي حالة فرط إفراز الدرق، والأودي الدماغية، والحساسية لحامض الأستيل ساليسليك، والقرحة المعدية، وقرحة الإثني عشر في مرحلة التطور، وأمراض النزيف، والسوابق، أقصد سوابق الحساسية لمركب البارا سيتامول والكافيين، وأخيرا حين تلاحظ نقصا حادا في وظائف الكبد.

فوائد أكيدة لهذا العلاج العجيب مع مفعول سريع وقوي، فيه قليل من الكافيين الذي هو منشط معنوي ومقو للقلب، دون أن ننسى قدرته المسكنة للألم، أما البراسيتامول، خصوصا حين يركب مع الفيتامين C على شكل حامض الأسكوربيك فقد يمنح جرعة مستحبة، لذيذة، لكن لا يجوز أخذها لمدة طويلة، أنه ينشط التفاعلات داخل الخلايا الجسمية، ويمنح طاقة، استثنائية ولمدة طويلة، وينفع في حالات العياء والضعف، وضعف الشهية، وكل الأعراض الناجمة عن سوء التغذية، وينفع في اضطرابات

الشيخوخة، نعم، حين تكون على أبواب الشيخوخة، يمكنك ان تضع القرص الرذاذ في كأس الماء ليذوب، تتركه يذوب، يذوب ويذوب، تنظر إليه يذوب، وترى حياتك التي ذابت، كانت صافية كماء النبع حين ينبجس بين الصخور الصقلية، ذابت وأنت واقف في البرد الذي يقرقر عظامك ووحدتك، ذابت وأنت واقف على الرصيف تنتظر. ماذا تنتظر؟ لقد مروا جميعا أمامك، مروا أمامك ثم ركبوا إلى حيث يشاؤون. أنت إذن لم تركب. ضع القرص في الماء ليذوب ثم اركب، لعل أحدا ما في انتظارك..

لعلني حين ركبت السيمكا سبيسيال تطلعت عبر المرآة العاكسة إلى وضع الميت بجلبابه الصوفي المحبب والفوطة حول العنق والقب يغطي ما تبقى من رأس مائل، وضع يمنح الناظر إليه أن الرجل هذا خرج توا من الحمام وتحدث لسانه بصوت حلقي وبحروف مزيدة ثم قرأ جزءا من سورة البقرة في مكان ما من هذه المملكة الدنيوية واختزل سلالته وتاريخه في كلمات ترنم بها قبل أن يوقع مع ملاك الموت عقدة سفر إلى العالم الآخر، ومن الواضح أنهم جاءوا به على هذه الحالة وقال الطبيب حين رآه هذا الرجل يحتاج إلى عملية في الرأس والسرطان ما معاه مزاح. وقالوا له شحال. بعد نصف ساعة قال الطبيب، اذهبوا إلى الصندوق. وموظف الصندوق قال كلمتين فقط : مليون ونص. كلمتان في غاية الوضوح يمكن قراءتهما أفقيا

وعموديا، ومع ذلك كان لهاتين الكلمتين وقع فعال شل تفكيرهم، وأثارهم، وأقنعهم، وجعلهم يقررون.

قرروا العودة إلى الدوار ووصلوا سيدي بومغيث وباعوا البهيمة وبنتها ولم يصلوا إلى الرقم. وقامت الحاجة في منتصف الليل وأشعلت شمعة وقصدت ظهر الكشينة الخارجي ووجدت هناك ما أثارها : تيربوشون (فتاحة قنينة) وقنينة خضراء مليئة إلى النصف تأملتها، كما أنعمت النظر عبر ضوء الشمعة المرتعش بين أصابعها المكتوية بالشمع الذائب إلى صورة رجل مفتول العضلات يمد كأسا مترعة باتجاه الخلاء وعلى رأسه إكليل من الغر، وقالت في نفسها الأسيرة للظلام والأكثر ارتعاشا من اللهب : شاي الله آسيدي بومغيث، التسليم لله ثم وضعت القرعة بين قدميها والسائل يتقلقل كأنما القرعة تحولت إلى رضيع ارتوى من ضرع أمه الكريم. وأزاحت خرقا عفنة وقدم دمية وقطعة جلد وورقة قذرة ربما هي نسخة مصورة من شهادة بكالوريا عليها طابع القيادة وخيوطا ملونة وبزولة صناعية تذكرت أنها رمتها بنفسها في مكان آخر لأنها ترفض الاختراعات الشائعة، وبحثت في قاع مزبلتها الخاصة عميقا حتى وجدت الزليجة مع أنها قطعة رخام مكسورة مجهولة الأصل والفصل، وقالت : الحمد لله، ورفعت الزليجة وبانت تحت ضوء الشمعة لفّة مغطاة بالميكا، محكمة الربط بقيطان تشرب الماء والرطوبة والتراب فأصبح أشبه بعرق نبات اللوبيا. وأطفأت الشمعة

بعد أن دست اللفّة في شونها. عادت من حيث أتت متعثرة، مستثارة، لكنها حين تمددت على اللحاف تحاول إيقاف دقات قلبها الشبيهة بدقات الطبول، تذكرت القرعة المزينة بصورة رجل يمد إليها الكأس. هذه الكأس من يمدها، سيدي بومغيث، أم هي فقط كأس المنون؟

أعوذ بالله. قالت الحاجة حين رأت باراج رجال المخزن وقبلهم علامة على حافة الطريق كتب عليها : قف! ومن جهتي خففت سرعة السيمكا إلى العشرين وقلت لها : هذا باراج باب سبتة وهم لا يهتمون إلا بالقادمين من الشمال يهربون الريحة والكيف وملابس العيالات والإلكترونيك، لا تنظري خلفك.

والتفت خلفي أتفقد حالة المرحوم وبجانبه جلست البنت البتول ذات العينين الرائعتين كأنها ملاك بلا جناح أرسله الله إلى الدنيا حتى إذا اجتزنا حاجز رجال الشرطة ذوي العيون الصقرية رددت الحاجة مرة أخرى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فيما انفجرت البنت ببكاء دمر أحشائي وخرب كل العالم من حولي.

التفت حولي أستعين بالحاجة فما عرفتني ولا عرفتها، ترى من تكون المرأة التي بجانبي تجلس مشغولة الذهن شاحبة اللون تنبعث منها رائحة غريبة؟ ومن يكون الميت الذابل الملفوف بالجلباب الصوفي المحبب وقد حال لونه شبه البني إلى شبه الرمادي، الهادئ القسمات وهو يشيخ لحظة بعد لحظة تنبعث منه رائحة النبات الذابل العفن المخلوط برائحة شربة الفول؟

واعادتني الحاجة إلى الطريق حيث تجاوزت شاحنة تجر خلفها عربة مكعبة أشبه ببيوت الصيف المنقولة حين حاذينا شاطئ الأمم، وتكلمت بصوت بطيء وقور، تكلمت وقالت وتحدثت وأضافت، وسحبني التيار بعد أن تدفق ماء الكلام بعد أن انفتح الخزان فما علمت من يتكلم أأنا أم هي، وكان التيار عنيفا له قدرة السيل والطوفان والفيضان والموج والأمطار والشلال والدوامات المغرقة، وبدا لي طبيب ابن سينا أشبه بعداد المياه الذي يزرع في مداخل البيوت يبدد الأرواح بعد أن يضع في جيبه جزءا من أموال الصندوق. مليون ونص هي ثمن شهادة ميلاد الموت، والرجل كان ميتا في الأصل والطبيب يعرف ذلك لكنه قال عليه بعملية ما دام جاء هنا، وها نحن نعود عبر المجرى.

وأضافت الحاجة : سيدنا سليمان عليه السلام هو الذي وقف على ساحل البحر والريح من تحته والإنس عن يمينه والجن عن شماله والطير في السماء تظلله يا ابني. ثم نظر إلى عظم أمواج البحر فدعته نفسه أن يعلم ما في قاع البحر يا ابني، فأمر الريح فسكنت من تحته، ثم دعا رئيس الغواصين وقال له : اخترلي من أصحابك مائة رجل. فاختار له مائة رجل يا بني. فقال اختر لي من المئة ثلاثين، فاختار له ثلاثين فقال اختر لي من الثلاثين عشرة، فاختار له عشرة، فقال اختر لي من العشرة ثلاثة، فقال الواحد منهم : غص حتى تنظر إلى قعر البحر وتأتيني بالأخبار، فقال له سمعا

وطاعة لك يا نبي الله، فغاص في البحر بعيدا ثم خرج فقال له سليمان : ما الذي رأيت؟ قال يا نبي الله، ما رأيت إلا امواجا وحيتانا، غير أني رأيت ملكا عظيما، قال لي : ماذا تريد؟ قلت له: إن نبي الله سليمان أرسلني أنظر له قعر هذا البحر. فقال : ارجع إليه فاقرأ عليه مني السلام، وقل له إن قوما ركبوا هذا البحر منذ أربعين عاما فعاب عليهم مركبهم فخرجوا يصلحونه، فسقط من أحدهم قدوم فهو يتجلجل في البحر ولم يبلغ قعره بعد، فرجع إليه وأخبره بالخبر، فتعجب نبي الله سليمان من ذلك، ولها عما كان يقصده. ثم قالت الحاجة : بينما هو على شاطئ البحر إذ رأى قبة من زجاج تضر بها الأمواج في لجة البحر، وقال للغواصين : غوصوا في إثرها، فغاصوا فأخرجوها، فلما وضعت القبة على ساحل البحر انفتح لها بابان بمصراعين وخرج من القبة شاب عليه ثياب مثل ثيابك يا بني، وكانت رأسه تقطر ماء، فجاء حتى وقف بين يدي سليمان. فقال سليمان : أنت من الجن أم من الإنس؟ قال بل من الإنس، فتعجب سليمان منه ومن زيه الذي هو زيك الآن يا بني، ثم قال له : ما بلغ بك ما أرى؟ فقلت أنت يا نبي : يا نبي الله، كانت لي والدة وكنت من أبر الناس بها، لا أترك شيئا إلا اشتريته لها من سوق سبتة وجوطية درب غلف، فلما حضرتها الوفاة سألتها أنت يا بني أن تدعو لك، فرفعت رأسها إلى السماء وقالت : يا رب، قد عرفت بولدي بي فارزقه

العبادة في موضع لا يكون لإبليس وجنوده عليه سبيل، ثم ماتت، فدفنتها فخرجت يوما يا بني إلى ساحل البحر لتصيد السمك لا لترش الماء على البنات الفاتحات، فإذا أنت بهذه القبة، فدعتك نفسك أن تدخلها، فلما دخلتها انطبقت عليك أبوابها يابني، وتزاخرت الأمواج بها، وكان هذا آخر عهدنا بك، وقال لك سليمان : فمن أين مطعمك ومشربك، فقلت يا نبي الله، إذا كان الليل جاءني طائر أبيض أشبه بالديك في منقاره شيء أبيض فيدفعه إلي فآكله، فقال لك سليمان : فمن أين تعرف الليل وأنت في ظلمة هذا البحر، أجبت : يا نبي الله، في القبة خيطان، خيط أبيض، وخيط أسود، فإذا رأيت الخيط الأسود زائدا علمت أنه الليل، فقال لك سليمان : هل لك في صحبتنا رغبة. قلت أنت : لا يا نبي الله، إن تشأ تأذن لي أن أعود إلى قبتي فأذن لك سليمان، فانطلقت ودخلتها وانطبق عليك بابها، وهاهي السيمكا سبيسيال وقد تزاخرت بها الأمواج، وأنت فيها، لا الماء يطفئ ظماك، ولا نار الموتور تغذي جوعك، لأنك تحولت من بحار وسديم وسحاب ومطر وجليد إلى ثلج، لا ترهب الثلج يا بني، إنه يتبخر أيضا مثلما يتبخر كل هذا الكلام.

وبدا جوّ الصالة راكدا في البداية. وعندما اختفت ناني تحمل في يدها كيس العقاقير والأدوية متوجهة إلى الطابق العلوي المخصص لغرف النوم حاولت استدراج معلوماتي في الطب النسائي فلم أظفر بشيء، فقد باغتني وجود امرأة نحيفة لها لون القهوة المكسورة بقليل من الحليب وعلى وجهها ابتسامة مزوعة، ونظرت إلى هاني أتساءل. قال : هذه فاتي، قطعة من التاريخ في حقيقة الأمر، مادام عمها هو الباشا الگلاوي، وتطلعت إليها أبحث عن ملامح الگلاوي حين أعطتنا بالظهر منحنية تبحث في رف القنينات بجوار البيانو عن جوني ووكر. والتفتت إلى هاني وخلفت كلماتها المباغتة اقتناعا عابرا لدي بأنها تمارس القرشلة، تساءلت : هل جاءوا بالثلج؟ فودي سيصل بعد لحظات.. وكان السؤال موجها في الحقيقة لهاني الذي رد بسؤال آخر، وهل تكلم مع المحجوب..؟ لا تسألني أنا، انفجرت في وجهنا جميعا. اساله هو حين يصل.. وقتها سمعنا الكلبة ريتا في الحديقة تنبح، كأنما

تتعقب قبيلة من القطط، وإثرها دخلت امرأة مبرنزة وعلى وجهها بتسامة رائعة، رفعت يديها، قالت : لا تتكلموا الآن، واستلقت على الفوتوي، وعرضت أمامنا فخذين مصقولين منحوتين بإتقان وبجهد، تلقائي انكشفا حتى منطقة الخطر، كانا هما الشخصية الأخرى الأكثر بلاغة في هذه المرأة بعد لسانها.

ونطق لسانها السريع : ماذا لديكم ليؤكل؟ ولاحظت أنني أتأمل فخذيها المبرنزين، أضافت : يمكنكم أن تتصوروا، أنا لست همجية، ولكنني أشتهي هذه الأيام دون شبع، ووضعت يدها المزينة بالخواتم على بطنها وعلى ذلك الجزء من الجسم الذي نعرف أنه يخص موضع العفة، وضحك هاني بصخب فيما هو ينظر إلى الخادمة الصغيرة تحمل صينية عظيمة عليها المشهيات أخذت تضعها على المائدة الدوارة، واعترضت فاتي على كيفية وضع الصحون، والتفتت إلى المرأة المبرنزة التي لم أعرف اسمها ولم تقدم لي، وأيّدتها : أنا أيضا أشعر بالجوع، أوصيت على الكوتليت المشوي بينما هاني أوصى على الكرعين، ولكن هذا الألم في الظهر، ماذا أعمل معه؟ وتكلمت المرأة المبرنزة الفخذين : هل جاء فودي؟ لاشك أنه سبب آلامك يا فتاة.. ومارست تلك اللامبالاة التي هي نوع من الامتثال أمام تواطؤ الرغبة لدى المرأتين. فودي، فودي، من هو فودي؟ تساءلت، ورن جرس التلفون، والتقت نظراتي بعيني ذات الفخذين ووافقت على نظرتي ومع ذلك ظللت إلى ذلك

الحين صامتا فيما هي ارتدت ذلك الوقار وحركت خصلة من شعرها الغزير المتحرر بتلك الطريقة المهيبة حين تقوم بها فرس تسري في بدنها حرارة الحياة التي وهبها الله. واستجابت فاتي لصراخ التلفون الملحاح ورفعت السماعة ونطقت باسمها : فاتي. وهيمن صمت التجسس على المكالمة فيما أخذ هاني يفتح علب البيرة المكسيكية المثلجة ويضع واحدة منها أمامي، استرخيت بظهري على حافة الديوان ومددت سَاقَيَّ وشعرت أن قَدَمَيَّ تنبضان بألم رهيب، وقالت فاتي : حاضر، ونطقت المبرنزة : هذا فودي. وأغلقت فاتي التلفون. وقام هاني باتجاه التواليت وفهمنا ذلك حين شرع يفتح سلسلة البنطلون وهو يهم بالنهوض جارا وراءه عجيزته وقد بدت الآن وديعة. لا ناقة ولاجمل. وانحنت فاتي على أذن المرأة ذات الفخذين وهمست بكلام ما، ولم تنظرا إلي، وضعتاني في الرف الجانبي لاهتمامهما ثم سحبت نفسا من السيجارة وأتبعته بجرعة باردة، غرغرت أمعائي وسرت في جلدي رعشة. وبدا أنني أسير في صحراء بلا نهاية تمنيت أن أصادف فيها أفعى مزينة برسومها الرائعة الملونة لتلدغني ثم تميتني في حضنها، وتعقبني صوت فاتي المشروخ : غير ممكن، هاني صعد إلى غرفتها فقط ليعطيها الحقنة، وضحكت ذات الفخذين : ذلك ما أعنيه، وقامت وهي تضع في فمها حبة لوز، وقالت لنفسها : على هذه المرأة التي هي أنا أن تعرف ما يجري. وأشعلت التلفزيون، وخطفت فاتي من

يد ذات الفخذين آلة التحكم، قالت : تأخر فودي ونشرة التي.
في. 5 بعد دقائق، ووجدنا السيناريست الأمريكي وودي آلن على الشاشة يجلس مع أمه وأبيه ورفيقته الأسيوية، وقال : كنت يا أمي تعاقبينني بالضرب كل يوم، سألقاك غدا في الجحيم لنتحاسب ورأيناه قاعدا في قاع الجندول يتجول في الممرات المائية لفنيسيا ويستمع إلى نقيق ضفدع فينيسي، ثم أخذ يعزف على تلك الآلة الشبيهة بغيطة زهجوكة، تنتفخ أوداجه وينطلق النقيق تماما كالضفدع فينيسي العجوز. وقال وودي : أنا يهودي مائة بالمائة ولن أقيم في باريس لأنها ستحرمني من مشاهدة مباريات كرة السلة الأمريكية، وقاطعته امرأة ابتسمت بملاطفة كتب تحت صورتها اسم جوليا كريستيفا، قالت : ما يهمني في أفلامك يا وودي أن شخصياتك تمارس الجنس على الفوتوي، هذا يعيد الاعتبار لعلم النفس تماما، وردّ وودي : لا أدري، ولكنني عجوز تجاوز الستين ولا ينفع، تجاوزت مدة صلاحيته، وقالت ذات الفخذين : وودي فهمها خطأ، جوليا لا تطلبه للنكاح حسب رأيي، وأكمل وودي : لكني أتحول إلى طفل كلما جلست مع أمي وأبي، وهذا يحدث نادرا، وقالت جوليا بلؤم : أنا متأكدة أن السيكلوجيا في أمريكا أشبه بالطاعون، على الأقل، نحن في أوروبا نفهمها بشكل آخر. وعاد هاني إلينا يحمل في يده قنينة نبيذ فرنسي : ماذا يجري؟ هل وافقوا على دخول الحكومة؟ ووضع

القنينة أمامي، ولم يجبه أحد، نظر إلى ذات الفخذين متسائلا، وتساءلت هي بدورها : قل لنا، ماهي أخبار النميمة؟ والتفت إلي ممازحا، قال لها : اسألي هذا المختص في كتابة السيناريوهات السياسية، هو الوحيد العالم بتحركات رجل باريس أولا بأول. ولأول مرة ابتسمت ذات الفخذين في وجهي مباشرة، قالت بحياء : صحيح؟ والتفتت إلى هاني : اتصل حميد من المجلة في باريس وسألني عن لائحة الحكومة الجديدة. أنا هنا لا أعرف أي شيء. وانسحبت فاتي ربما إلى المطبخ لإحضار الثلج، وقمت أنا لأحرك أعضائي وأتأمل لوحة علقت على الجدار المقابل للبيانو، بدت اللوحة أشبه بلوحات ميلود الأبيض في تجاربه الأولى، ووضعت اصبعي في مركز اللوحة حيث وضع الرسام خطين دائريين غير مكتملين، وكانت ناني قد وصلت مرتدية لباسا غريبا ربما شاهدته على جسد امرأة أخرى في فيلم إيطالي، وكانت تضحك وتقول : لا يستطيع المرء أن يجاريه، وكانت تقصد شخصا ما، ورفعت اصبعي عن اللوحة، وبدا أنني شممت رائحة نتنة، وأنعمت النظر في اللوحة مرة أخرى، لكنها أخذت تغيب شيئا فشيئا حين أخذ يتكاثف بخار تنفسي على زجاج النظارة، وتمددت ناني واسترخت بطولها على الديوان، وتعلق الشبشب ببنانها دون أن يسقط، وتوجهت إلي بالكلام : مسيو صحيح، هل أستطيع أن أسميك بغير أن أقول لك مسيو، تقبل؟ وتغيرت نبرة صوتها فيما

ذات الفخذين تضحك، اعطه كأسه يا هاني، هل تقبل أن أسميك نينو؟ ولكن تعال، اجلس قربي، اقتربت، وقالت : لا تدخن الآن، أرجوك، وبان لي الجزء العلوي من صدر ذات الفخذين وأنا أقترب، وتذكرت اللوحة، دائرتان لم تكتملا بعد وبينهما النقطة، وجلست بمحاذاة ذات الفخذين، وحاولت محو ذكرى اللوحة من ذهني دون جدوى، وقالت ناني برزانة : ربما هو بونويل أو كوبلا، أحدهما استعمل اسم نينو، من يصحح لي؟ وقلت لها : أنت تتحدثين عن ماريو بوزو، هو الذي كتب رواية وفيها شخص يدعى نينو، وقالت هي، ولكنني سأسميك نينو، اسم جميل أليس كذلك؟ وتدخل هاني : ناني ونينو، هذا لا يعني أي شيء. واستدارت ناني نحوه مثل نمرة مثخنة بالجراح رافعة نصف جسدها الواهن من على الديوان، وشحطته بلسانها، قل لي، صاحت في وجهه، أين كنت البارحة؟ اسأليه قال لها، مشيرا إلي، وسمعنا صوت خروج البوشون من فتحة القنينة، وتلفتت نحوي : نينو، قل لي الصراحة، لا تكذب علي، أين كان البارحة، قلت أنت تعلمين، كنت البارحة في التلفزيون وقبالتي با المعطي، وإذن. أنا غير موجود البارحة، وقالت ناني برجاء : نينو، قل لي الصراحة، أنت تعرف ما يفعل ولو كنت في أي مكان، وتدخلت ذات الفخذين : هاني، قل لها، الأمر لا يعني نينو على أي حال. وقدمت فاتي من المطبخ بيدها سطل الثلج وخلفها الخادمة البدوية

الصغيرة تحمل صحونا من الكوتليت والنقانق والكفتة المشوية، وربما تغير الموضوع حين مدت إلي فاتي الشبيهة بأوفيليا زوجة يوباي، بطل أفلام الكارتون، صحن أصابع الكفتة، وقالت ناني : فاتي، ابتعدي عن نينو، نينو ليس ضيفا لأنه أصبح واحدا منا. والتفتت إلى هاني : وأنت، هل علم صاحبك أنه باق في الحكومة القادمة؟ ورد هاني : وصلني منه فاكس، ولكنني لا أعرف ما أقول، وتذوقت أصبع اللحم المشوي، ثم تذكرت رائحة خبز الوالدة، وتذكرت صورتها، وتذكرت أن عاما مضى دون أن أراها، وتذكرت منزلنا القديم قبالة المقبرة، وتذكرت قطيع الماعز يمر في الصباح الباكر أمام الدار وبائع الحليب ينحني على ضرع المعزة ليحلب ويحلب فترى السائل الأبيض الفوار الدافئ ينزل خيوطا تملأ الماعون، وتذكرت حين انزلقت إلى المطمورة، وصياحهم، ولحظة أطل الوالد، وتذكرت دفتر الطلبات، تقدمه إلي الوالدة حين أنزل إلى الرباط، وتذكرت شارع الإذاعة، وقبوي المشترك مع مسيو شيفي، يمص أصابع الموز ثم ينهض لإعداد الحساء أو غسل الجوارب، وتذكرت عصابة الكلاب تنبح حولي، ثم تذكرت فوطتها المعطرة، وعينيها. عيناها، وخلوتنا الأولى، عليّ اللعنة، تذكرت إطلالة جرذ الليل يطل من جحر في رأسي، وهذا المكان الملعون، وتذكرت وحامها، وقلت لها، أتذكر، إياك وتشوهات الشفة التحتية بين الفخذين، وازرراق الجلد بعد الولادة، واحذري

الطبيب المناوب في جناح النساء، أريد وريث العرش كاملا منذ الـولادة، لا يـأتي بالعـملية الـقيصرية حيث لا ولادة بعد الوفاة. أو ما يترتب عن خطر التعرض لخمج الرحـم، ونحن لم نعملها أثناء فـترة الطـمث، وأتـذكـر، أنـني فتحت سيرة ابن اسحاق أمامك يا هذه، وقلت لك لم لا يكون السين رديف النون؟ وها فهرس الأسماء والأعلام فاختاري لك اسما منها، اغمضي عينيك ثم افتحيهما وهات أصبعك وضعيها على الفهرس ولنختر بالقرعة. قرأت عليك أسماء عجيبة : تارح بن ناحور ويكسوم، ذبيان وجذعان ونجيح وقحافة وشهاب وعياض وذؤيب وقميئة ومغيرة وأيوب، طالب وقيس ومنظور وميسرة، لهب وقبيس ومخزوم وأشعث، ورفضتها جميعا، قلت : نحن لا ننجب الديناصورات، وقرأت لك أدهم وبسام وجعفر، قلت لي : اخلط الذكور بالإناث، قلبت الصفحة وقلت لك الحسن والحسين ورقية وزياد وفارس وسعد وزينب وأسماء وليلى وسعيد وسلمى وعفيف ومالك ولبيد ومعاذ ومليح وهاجر وياسين وآدم، ثم فتحت عينيك عندما نطقت باسم آدم. أتذكر، قلت لك : لا يليق بنا إنشاء سلالة من البشر تبتدئ بآدم آخر، لنختر أي اسم مختصر، موجز، يلتف حول أي شيء، ينساب طليقا، محمولا على تيارات من ريح بارد، ينتمي إلى عائلة برج الحوت، أو على جبينه علامة مثلثة كما تبدو على جبين برج الثور، اسم طليق، يتطاير، يتلوى، تنمحي حروفه

الغامضة في السماء ثم تتوهج، ثم تنطفئ، فيصير عدما بلا وجود، وإذن لا وجود له، أين هو؟ وتردد على مسامعي صوت ضاحك : نينو. نينو. نينو. أين أنت؟ تلفت حولي. وصوت مطر يهطل في الخارج بلا رعد وبلا مناسبة، ورجل بقامة مربوعة أمامي، وصوت ناني يقول : نينو، هذا فودي، جاء توا من النقابة ليراك..

ورآك عبده الثاني على الجانب الآخرلشارع محمد الخامس قبالة البرلمان، وأنت تخترق صف النخيل وتنشد في داخلك أغنية وتتصيد خاطرة ترفعك فوق الأرض، وأخذ الرذاذ يسقط ثم سرتما نحو المقهى المقابلة، وقال لك لم عدت مرة أخرى إلى التدخين؟ ولم غبت طويلا ولم لم نعد نراك؟ وهل اتصل شاوشاو أم بقي هناك في مدريد؟ وهل تعرف مالكوم لاوري؟ ألم تشاهد فيلم ابن رشد؟ وناني، هل تعرف أسرار الدولة، إذ كانت لها أسرار؟ ومن يجيبني على هذه الأسئلة؟ أم أن الأسئلة تهيء لك متعا أكبر وأوسع من الأجوبة؟ وهاني، ألا تعرف أنه يتلذذ أكثر حين يصغي إلى ناني؟ هل تعلم أنه يحبها أكثر وهو يستمع إليها؟ هل يمكن وجود رجل مثل هذا، لا يفهم، يتعامل فحسب، ولا يعرف أن يمنح شيئا؟ ألم تكتشف أن التعامل بالنسبة إليه يعني الكسب، وهو يكسب أكثر بالفعل، ويستطيع أن يكون أفضل وأحسن في هذه الحالات؟ ألم تقرأ في عينيه ذلك المكر الغريزي الذي راكمه عبر

السنوات؟ وناني هي الأخرى، ألا تعلم أنها موهوبة بالفعل، ولا تملك ذلك الحدس البارد، الذي تحتاج إليه امرأة في الأمور التجارية؟ ألا تتفق معي، أن هاني يجمع المال، وأن المال ينمو، ويتضخم، في هذه الأرض الميتة؟

وحاولت أن ألملم شتات الصورة، وأن أفك لغز الميت القاعد في المقعد الخلفي للسيمكا سبيسيال، ورأيته عبر المرآة يضطجع على أحد جانبيه، رقبته تتدلى حرة إلى الوراء، وعيناه المفتوحتان تبدوان كما لو كانتا تنظران إلى داخله، وربما تقولان إنه نادم على أنه مات، لكن، لم يفتح الموتى عيونهم؟ هذا لا يبدو طبيعيا خصوصا إذا كان الموت يشبه النوم، والعينان المفتوحتان، هل هما إشارة إلى أن الميت كان يريد أن يشاهد موته؟ لكن لماذا؟

وسألت الحاجة : وهل وجدت القرعة في الصباح هناك؟

ولم أنتظر إجابة، التفت إليها وأنا أخفف سرعة السيمكا، ورأيتها غافية، وبذلك انتشلت المسكينة نفسها من سماع هذا النوع الرخيص من الأسئلة، وكدت أنفجر من الضحك حين تصورت الحاجة وهي تقتفي بخطواتها الوقورة آثار رجل حمل القرعة في الظلام وجلس على حافة الصخرة قرب البئر وهو يصب في جوفه السائل جرعة جرعة، وربما يراقب قمرا حجبته الآن كتلة

من الغيوم فعم ظلام ملتبس، وسمع الرجل هسهسة النباتات خلفه، والأعواد الجافة تنكسر تحت قدمين حذرتين، والتفت الرجل دون إرادة، ولم يعرفها، تصورتُ أنه لم يعرفها مع أنه يعرف الحاجة لأنه لا يحتمل أن يتصور الحاجة تتجول في الظلام لابسة منصوريتها المبرقعة ورأسها ملفوفة برزة المرحوم، ولعله أحس بالتهاب في معدته حين وجد أن امرأة من العالم الآخر تكتشف خلوته، وشخر مثل كلب مخمور رغم أنه لم يشرب سوى جرعات، وتلوى جسمي من فرط الضحك وخفت أن أوقظ الميت، وتصورت الرجل دفع بيده الظلام، وهي إشارة أراد بها أن يوقف المرأة الصامتة، ولم أكن أدري أنه سيدع القرعة تسقط من يده، وأنه سمع تلك السقطة، لها صوت خاص، صوت انفجار داخلي أيقظه وأعاد إليه قدرة التحكم في حواسه، وكاد يسقط حين نط فوق الظلام بخطوة واحدة، يجري ويجري ويلهث ويختفي، والأرض تلتهب تحت قدميه، وهو لا يشعر بهما، كأنه بلا قدمين، وكأن في أعقابه عشرات من الكلاب التعيسة تطارده، وأنا أكاد أنفجر من الضحك.

وضحك الوزير، قال : من كل قلبي، يا سي سعدون، أقول لك، أنا أحيانا أكون في حاجة ماسة إلى كتابة الشعر، ومع ذلك، أحلف لك بالله أن العناية الإلهية هي التي دفعتني إلى السياسة.

ونظر إليّ سعدون، متكلما بلهجته المراكشية : اسمع يا رجل، هاهي البلاد تربح شاعرا آخر، وابتسمنا جميعا، أنا، والمدير العام، وسعدون، على سبيل المجاملة، واستند الوزير على ظهر الكرسي بعد أن دفع ببطنه الثخينة إلى الأمام وأخرج من جيبه الداخلي بطاقات زيارة. مدّ واحدة لي، وأخرى إلى سعدون الذي وضعها أمامه. قال : زوروني، حرام عليكم، زوروني، فمكتبي مفتوح لكم. ونهض مدير التلفزيون وهو يتطلع إلى ساعته، قال : يبدو أن الوقت حان، لكن بقيت عشر دقائق أمامكم، وحيّانا بانحناءة رأس وغادر.

ووضع الوزير حقيبته الجلدية بحركة متشنجة، واعتقدت أنه سيعرض أمامنا بلاغ الحكومة حول الأحداث الأخيرة، لكنه قال : أنا مستعد، لكن سعدون داعب شاربه الكثيف ورمق الوزير بشك، ولكنها فقط بضعة أسئلة، وكل شيء معروف عن موقف الحكومة، لكن الاعتقالات، والمحاكمات السريعة، ومشكلة التزوير، وقلت : أنت لا تريد منا أن نسكت على ذلك؟ وظهر أنه لم يسمع، فقط، أمسك قلم الحبر وخط بعض الكلمات. قال : كبداية، سنتكلم عن سياسة الوزارة، وبعد ذلك، يمكن طرح أي سؤال، وأطلت علينا معدة البرنامج، قصيرة وممتلئة ولذيذة، وسيجارة المارلبورو لا يت بين أصابعها، وقالت : هذه هي العادة، سننزل إلى البلاتو لإجراء تمرينات الصوت، هل أنتم مستعدون؟ ونهضنا جميعا، وقبل

مغادرة القاعة جالت عيناي في محتوياتها المجردة، وسرح فكري ولاحظت أن القاعة تشبه قاعة انتظار في عيادة، وشعرت بعطش غريب نشف لساني وأنا أنزل السلم صحبة سعدون والوزير حيث الأضواء والكاميرات، وصفوف الفضوليين القاعدين على شكل حلقة من كبار رجال الدولة والحكومة والصحافة، وانحنى الوزير على أذني وهمس : كن على علم، لدي تفويض كامل من الحكومة لأقول ما أقول، وصعدت القردة على ظهري وأمسكت بجمجمتي وأخذت تخبط وتخبط، وبينما كنت أسير تحت الأضواء الباهرة، والحروف تطير من رأسي حرفا بعد حرف، رأيت تلك الصحراء المرصعة بالزنابق التي تسكن صدري في المساءات، والعاصفة تهب، تكنس الأفكار والمشاعر، وتكنس شرود البال.

ـ ولكن لماذا تبتسم؟

وتطلعت إليها عبر المرآة وبدا وجهها شاردا شفافا مثل الميت، مكسورة ومنسية ولا حاجة تشغلها غير أن تكون غير موجودة. وفيما استسلمت الحاجة للنوم وراحت في سبات عميق قفزت عيناي إلى عينيها وأيقظني ذلك الرعد يا ربي وقلت هذه هي النهاية وماذا أستطيع أن أفعل غير أن أجري وأهرول خلف عينيها وابتسامتها للأرض الميتة تكنسها الريح وأنا أستغرب وأصمت ولا أتكلم وخصلات من شعرها الغزير تغيظني وتثيرني وهي

لا تعلم بـذلك وأنـا أتحرق لسماع صوتـهـا وهـي تبـتسم وها
أنا أتصورها نائمة في السرير قدمها عارية وبطانية الصوف عليها
ذبابة تعمل شيئا ما وهي لا تتحرك منذ نصف ساعة وشعرها
محلول ووجهها بلا تجاعيد والحذاء مركون في الزاوية وممسحة
الأرجل أمام الباب والمرآة تعكس صورتي ولا أتصورها نائمة بغير
القشابة وماذا أنت فاعل يا هذا وتلك طريقتك في الجنون أتعرف؟
ذلك نعم أعرف ذلك، مع أنني خلعت الستره وعلقتها قرب النافذة
عليها ستارة شفافة رخيصة وهي لا تتململ وفحل الخيل في بطني
لم يترك الفراغ إلا ملأه ورائحة تفوح ربما هي رائحة قيء الـرضع
وما حاجتـي لأن أعـرف مع أنـني أسـتـطـيع أن أرى وجـهـها
وهي لا تستطيع أن ترى وجهي وبودي لو كانت رائحة أخرى
حيث أجلس يا ربي على حافة الفراش وأخلع ما تبقى من ملابس
وأرفع الغطاء نعم أرفع الغطاء وأرقد إلى جانبها كي تخرج المحارة
من درقتها تلك المحارة القليلة الحياء الكذابة تعرف أنني معها أرقد
بجانبها والطريق قبالتنا ممتدة وممتدة والريح تكنس الكلمات ويدي
تتسلل مرة أخرى إلى لحمها وأضغط على ظهرها فترتبك الطريق
هي تفعل هذا وذاك وبعدها ينتهي الغباء وتنقلب وتعطيني وجهها
وهي لا تتظاهر هذه المرة بالنوم لأنها رمت القشابة بالطبع ووجهها
حار لفحته النار فتضرج وأنا أفكر في شغلي وهي تفكر في شغلها
ولا تستريح ولا أستريح وتتفسخ عظامي وتتفسخ عظامها ثم تطلق

لعبراتها العنان تبكي وتضحك وتَضحك وتبكي وكل لمسة من يدي تجعلها هكذا كالليل والنهار وليست غلطتي بالطبع فهي هكذا أتصورها تبكي فأرفع نظري إليها فأجدها تبتسم ومن يصدق ذلك والطريق أمامي طويلة وأنا نفسي لا أصدق ذلك.

وقال شاوشاو : من يصدق ذلك؟

وتوجه بالكلام إلى عبده الثاني، ومطر ناعم يهطل خارج المقهى، ونحن نتساءل إذا كان هذا المطر سيتوقف أم لا، وكان من العسير أن نعرف ذلك ومشهد عجوز أمامنا يبحث بعينيه عن قوادة تفتح له سكة العبور إلى إحدى بائعات الهوى من طينة التلميذات الجائعات دوما، أو نصف محترفات مادمن يشتغلن نصف دوام في مكاتب الشركات بربع المبلغ وبلا أوراق، وما الذي يمكن عرضه في سوق الحب والمال غير هذه التكويرة أو تلك، وهذه النقطة أوذاك الشق السري ذي اللحية بكل المبلغ أو بنصف المبلغ، أو على الأقل بوجبة نصف دسمة مع وعد نصف صادق بأن سحب النقود سيتم في الغد، وارجعي، بلا خزي، بل بالحنان المقدم على صحن النبرات الصوتية الرقيقة.

ثم قال شاوشاو وهو يستل من جيبه الداخلي سيجارة مارلبورو بخفة الساحر : نعم، من يصدق ذلك؟

وقال عبدو : عليها اللعنة، تلك الكاتبة الأمريكية، كتبت عن

أبيها حين كان يضربها ضربا مبرحا، ولاشك تصل قسوة الأب إلى حد حبسها في قبو البيت، وحين ينتهي من حفلة الضرب، يتعرف في لحظة خاطفة على النقاء الحقيقي لهذه البنت اليانعة قبل الأوان، ويفتح أزرار سرواله ويفعل فيها، وهي تبكي وتضحك وتئن وتتأوه وتلهث وتتألم وتداعب هذا القادم القاسي، يا للخزي، يا للعار، تصوروا هذه المرأة تكتب عن ذلك، مع أنها في الأخير تقول هي غير متأكدة من أن ذلك حصل فعلا، كانت صغيرة والدود لم يستيقظ في قلبها بعد كما يبدو ولا تتذكر كل التفاصيل ومع ذلك تكتبها بعناية لتعيش وتجرب مجددا هذا الضحك والبكاء ثم تصل في الأخير إلى إنكار حفلاتها الوثنية، الأمر يدعو للتساؤل فعلا.

وقال شاوشاو : من يصدق ذلك؟

لكن، على الأقل، صدق نصف ما يقال، فلك من كل زوج اثنان، ولك أذنان، أذن للتصديق، وأذن أخرى للتكذيب، ولك لسان مفلوق، وعينان، ويدان، وهاهما معا أمامك الآن، هاني وناني، اثنان، ومصطاف السائق يفتح باب المرسيدس 250 لتركب المدام، تتجاهله وتركب مكان السائق، اذهب يا كلب إلى الكانون ولا تسرق شيئا من الثلاجة، لكن الثلاجة ركّب لها قفل، ولديها المفتاح، الملاعين، اللصوص، لا يشبعون، ويحني هاني رأسه، لا يعنيه الأمر، صدق أو لا تصدق، يركب في المقعد الخلفي مثل

اي شيء بخس، أنا لا أعرفك يا هاني وأنت لا تعرفني، اظهر قامتك فقط بعيدا عني ولا تخف سمنتك وبطنك الكبيرة. ما اسم المكان؟ لافونطين، حسنا، وهذه القحبة الشقراء أمامك يا هاني ما اسمها، ألا تدري؟ ألا تدري أن فاتي تعرف أسراري وهي التي صرفت الشيك اليوم وقلت لها سأجرب الليلة دور القحبة في مكان مليء برجال ونساء هم مجرد نفايات الليبرالية ومجموعة أوباش وحثالات من الأصناف التي تعرفها وهي التي أتت بكيس العطور والعقاقير وأنا أكره استعمال الكريم وأنا استعملته أمس واليوم ليجعل بشرتي ناضرة جديدة، أليس كذلك يا حمار؟ وتجربتنا في إسبانيا هي الأخرى تضحكني لأن الرجل الذي اصطادني وغازلني واشترى لي علبة سجائر وغطى يدي بالقبل وفعل فعلته الكبيرة في التواليت أحسن منك وأنت لا تعرف المغازلة يا حمار وكان أحسن منك في كل شيء أيها العروبي فابتعد عني اليوم واشرب كأسك كأنك لست معي وأنالي حيلتي وإياك أن تقترب من ذلك العيار من النساء فأنت لا ترغب سوى في اللواتي لا أقبلهن خادمات عندي وإلا غسَّلتك وكفنتك ودفنتك.

وربما كانوا ينتظرون وصولنا هناك في سيدي بومغيث ليغسلوا الميت بماء البئر المغلّى على أعواد الغابة المجاورة ويتشاور الصلحاء مع الشيخ بنعيسى فيما يقضي به الله قبل أن يطبعوا على الاسم الذي

يستحقه المرحوم على شاهدة القبر، وربما اختلفوا إذا ركب أحد الصلحاء على قصبة وبرًح من أعلى الجرف المطل على ضريح الولي وأمواج باب البوغاز المسمى بجبل ونادى في المعزين بأن أولاد الشرفاء لن يلتقوا على الخير أوالشر إلى يوم الدين، وهذا ما يقوله ظهير السلطان والعلم لله.

وكان المرحوم، تقول الحاجة، يستعمل الحيوانات في الرموز، والعلم لله، فحين كان صغيرا، كما كتب مقدم الضريح الشيخ بنعيسى في الكناش، رأى المرحوم في المنام أن أسدين خرجا من إحليله، فتبعهما الناس إلى أن دخلا صومعة، فوقف هو ببابها، بلا حس ولا خبر، وهكذا شأنه، طيلة حياته يدق الأبواب بلا جدوى، وقالت الحاجة، وكان ذات يوم يقرأ القرآن في جامع الفقيه الجزار بعد أن استعدناه، سرقه منا اليهود من لحظة دخول التسبيت في عشية الجمعة إلى دخول التسبيت التالي، واستعدناه وأجلسناه بجانب أخيه الأعرج يقرأ القرآن مع الصبيان بين يدي الفقيه الجزار، فإذا بديك طار ونزل على رأس أخيه ، ولم يلبث الديك على رأسه إلا لحظة، ثم طار ونزل على رأسه هو، رأسه هو ينزل عليه ديك من الديوك الملونة التي تعرف، وأفرد الديك جناحيه وأخذ يصيح : كوكوعو، كوكوعو، كوكوعو، مرة أولى ومرة ثانية و ومرة ثالثة، والمرحوم يصرخ، يصرخ ويصرخ، مرة أولى

ومرة ثانية، ومرة ثالثة، وخرج الفقيه الصالح إلى صابة القاضي قرب باب الجامع وأخبر الناس بما رأى، أعلمهم بذلك وكان رجلا صالحا، فقال له الناس، وماذا يعني ذلك يا سيدي الفقيه؟ فقال لهم الفقيه الجزار من فم فاضت على زاويتيه رغوة خفيفة من شدة الانفعال : اسألوه، اسألوه هو، فربما يكون لهذا الصبي شأن عظيم يا أيها الناس.

وتفوهت الحاجة فاتحة فمها وغطت حفرتها بيدها وهي تقاوم نوم الطريق وموتور السيمكا يدندن في رأسي كالنحلة السعيدة، ومن يومها، تقول الحاجة، أصبح الفقيه الجزار يناديه بياقوتة الأشراف، والفقيه يعرف أن جده زرهوني، وأمه مشيشية، وأن الجراحات ملأت صدره وظهره وشهرت أيام معركة وادي المخازن، المعركة جرت منذ قرون وهو يستيقظ قبيل الفجر كعادة تلك الأيام ونحن ندخل عليه في غرفة العيال وقال لنا بين صياحه وبكائه، انظروا، هذه جراحات السيوف والبنادق، مشطت إحداها ظاهر قدمي وخاضت الرصاصة الأخرى في أحشاء فرسي من تحت الركاب، ماتت الفرس في المعترك وأصابتني الجروح الأخرى في الصدر فكانت علي بردا وسلاما، وسمعناه وأيدناه رغم أننا قلنا كفى من الكذب والتلفيق يا أيها الشيطان والمعركة جرت منذ قرون، ونبذناه في العراء وهو سقيم، وقال : وحين أدخلت يدها من تحت البدعية والقميص والأطواق الأخرى لأمس الجرح،

وجدت حصاة البندق هاته، وفتح كفه أمامنا وأرانا بين الذهول والحيرة حبة بندق، وقال : نعم، خرقت حبة البندق الأطواق وبردت عند الثوب، وعلم الناس بالقصة فيما بعد، تقول الحاجة، على أن القصة صارت هكذا : جاءت كورة رصاص من مدفع إلى صدر الديك، ثقبت قشابة الصوف ووقفت عند لحمه ولم تدخل فيه، على أنها صارت مثل قرصة، كأن كورة المدفع ضربت في صخرة صماء.

وها أنذا أشد رحالي يا صاحبة الدار أركب السيمكا وأمامي طريق طويل جد وعر، جنون كله هذا الذي أسمع ويتخايل لي، والبكاء على الميت، أسير بلا موسيقى سوى موسيقى عينيها حين ألتقطهما عبر المرآة، وحلم الحياة قد تم واكتمل، وستمضي الحياة على منوالها من بعدي، وأنا مرهق، مرهق أخوك حين يبتلع أقراص السّم في الصباح، وفي الظهيرة، وقبل النوم، أسدلت الستائر وها أنذا أرقد من أجل تلك الراحة الأبدية، والديك على رأسي، وبين شكل ولون ريش هذا الطائر يبدو التاج على رأسي من ريش وذهب وياقوت، وتبدو صومعة، الأسود مضطربة تتحرك كالغصن، والكل قبض ريش، وكلامي مفهوم، وأنا لا أتكلم السريانية، لغة الملائكة والأطفال، بل أتكلم بالمفاتيح، لغة الأولياء والأوتاد، وبعلم الحروف والأسماء، أعرض بضاعتي أمام من

سماني، وقوم عظامي، وأحياني وأماتني، وقرأ طالعي، بل وأكثر، من أدخلني إلى هذه الزجاجة وأغلق بالسدّادة فتحتها ورماني وأنا بداخلها، وها أنذا أصحو على معرفة نفسي الأخرى، وأكتشف الحلُّوف يدور من حولي، ينخر ويشخر، وريش الديك على رأسي وهو التاج، والديك يفرد جناحيه، ثم يطير، ثم لم أعد أراه، ثم لم يره أحد من بعد، وإذن فقد عشت، سلاما، ووداعا.

ومددت يدي لأسلم، وأخذ فودي كفّ ناني ذات القفاز الأبيض وقبّلها : وقالت آه، أنت تؤلمني، وتجاهل فودي وجه السلحفاة الذي قدمته فاتي ولم يحظ بقبلة كما توقعنا، وفهمت من نظرة ذات الفخذين أن فودي غضبان، وقال فودي : أين الثلج؟ وأخذ القنينة وصب لنفسه، والتفت إلي : الوزير كان مرتاحا معك، ولكن سؤالك الأخير كان في الصميم. وتساءلت ناني : هل اتصلت به؟ ولم تنتظر الرد، قل له، أضافت، نحن لا نطلب حصتنا من تلك الأموال، فقط حصتنا على شكل إعلانات للمجلة، وضحك فودي : لا تتكلمي الآن يا ناني، صاحبنا مشغول بالإضراب العام، وبصهره المرشح للوزارة. وأشعل هاني سيجارة من عقب سيجارة أخرى، قال : أخرجناهم البارحة من السجون، واليوم يشتموننا، وأكملت ناني : غريب، إنهم لا يسمحون حتى بانتقاد بعضهم. وظيفتهم فقط هي الاحتجاج،

والاحتجاج هو البرنامج، والشتم هو الحجة، وقلت : مع من تريدين أن يتحاوروا، مع هؤلاء القراصنة؟ وأكملت ذات الفخذين، وهي إلى جانبي، تمسد ركبتها السمينة. فعلاً. الأمر يبعث على الاشمئزاز، الحكومة تعرض الحوار، وهم يعلنون الإضراب العام، وقال فادي : انتظروا بضعة أيام، سيجلسون معنا على الطاولة، وسنقول لهم، تفرجوا على هذا الكاسيت، هاهو زعيمكم داخل السجن يقوم بأفعال مشينة، ونهرته ناني : لا تقل ذلك يا فودي ولا تتفوه به مرة أخرى، هذه أسرار. وقلت : هذه أكاذيب، وقالت : غدا سألتقي الرجل الكبير، يومان وأنا أحاول الاتصال به دون جدوى، وتجاهلتني، والتفتت إلى هاني : ماذا تقترح؟ ألبس السروال أم البلوزة؟ وتحول مجرى الحديث، وانحنيت على ذات الفخذين، همست لها : من هو الرجل الكبير؟ وابتسمت بخبث، قالت : عشيقها السابق صانع المعادلات، ثم تساءلت مرة أخرى : ولكن الرجل على شفا الموت، هل ما زال...؟ قالت : أنا أيضا لا أتصور ذلك، أو أتصور أشياء أخرى، ولكنها الألفة.. وقالت : اخنق في نفسك هذه الأفكار يا هذا وإلا ستجد نفسك منبوذا، حتى المتع الشاذة هي نوع آخر من الأخلاق، وأشاحت بوجهها ساخرة، وابتسمت وأنا أضع يدي على كتفها اللين، ولكن لم تنظر إلي هكذا، أضافت، أتراني متسخة بكل قذارات هذا العالم وعاره؟ وقلت : حاشا. أنت فقط

لذيذة وحلوة كالعسل. أسبلت عينيها واسترخت، استرخت تماما ذات الفخذين فيما أخذ الهرّ يموء في داخلي، يموء ويموء، وانتصب الهرّ شامخا، مغطى بالصخور وبالرماد البركاني، وهو يركض بسرعة ممتعة، يهفو إلى باب الدخول الموصد، ويتهيأ لاستقبال مطر من الأحجار الكريمة، والزهور، والشموس التي تذيب الثلج، وفي مساحة الانتظار هاته، تلفت الهر إلى ذات الفخذين، فوجد نفسه وجها لوجه، هذه المرة، أمام قناع، نصفه انحشر في أعماق الريش يستريح هانئا، ونصفه الآخر بعيد عن النظر، منزوع الملامح.

وانتزع شاوشاو نفسه دون رغبة من أمام الحاسوب وقال لي إذن هيا بنا إلي نادي الخيول، هناك سنشرب كأسا واحدة ونأكل البروشيت، وفي الطريق، وهو يسوق الفيات الجديدة، تلفت إلي، قال : ما الأخبار؟ قلت : لا شيء. قال : هل تتصور، أعطوا تسبيقا لكل برلماني وصل إلى عشرة ملايين، هل يعقل، عشرة ملايين لكل برلماني، واحدا بواحد، ولماذا؟ ثمن الجلباب والشاشية، ثمن الهيبة والحصانة؟ قلت : هذا ثمن بخس، وكن على بال، الاستقرار لا ثمن له، وكلهم يفهمون هذا، هم يحتاجون إلينا ونحن نحتاج إليهم.

وانعطفنا خلف المستشفى لنخترق شارعا مظللا بأشجار الكالبتوس يؤدي إلى بوابة النادي، وتمهل شاوشاو، وواجهنا رأس

حصان محفور بالجبس على عمود حائل اللون، وتوقفنا أخيرا أمام ممر مرصوف، وتطلعت حولي. قلت : هل نركض؟ الخيول لا وجود لها كما تصورت، هل علينا أن نركض بدلها؟ وأجابني بابتسامة، مشيرا إلى براكة مواجهة للشمس، هناك، قال، المكان خال..

وبعد القدح الثانية، جاءوا بالبصل والطماطم، والصلصة،وبسفافيد اللحم المشوي، فيما ذبابتان، على الأقل، أخذتا مكانهما بين كل ذلك، لمشاركتنا الوجبة، وقلت : هذا من فضل ربي. ومد شاوشاو يده إلى سفود لحم ونهر الذبابة وأمسك بالسفود محاذرا، قال : اذهبي، لعنك الله، وعادت الذبابة مسلحة بالإصرار المطلوب، ونفخ شاوشاو على الذبابة ليطردها وخبط الأرض بقدمه. اذهبي، وبقيت في مكانها، تحط مرة على اللحم الذي أخذ يبرد، ومرة على حافة صحن الصلصة، فيما الذبابة الأخرى تراقب وتتربص، معتزة بجسارة أختها الذبابة، متعاطفة معها، لكنها لم تعرض حياتها للخطر، مع أن لهذه الرائحة لذة خاصة تتغلغل عبر حواسها الدقيقة. وقلت : لا أعرف. ما الذي يجذبها إلينا، هذه الذبابة؟ ونظرت إلى الذبابة ونظرت إلي هي جامدة، بكل عيونها القبيحة، ولم تتململ، ولم تتزحزح، وكانت عيونها ـ وبعضها أصغر من الأخرى ـ تبدو وكأنها تترصد الفرصة للانقضاض. وقال شاوشاو بين المضغ والضحك : هل أنت جاد؟

ولم ألتفت إليه، إذ ما زالت الذبابة أمامي، مشلولة الإرادة، تلتقي نظراتها المثقلة بالأسئلة بنظراتي، وخاطبتها : انظري إلى نفسك، لك قدمان قبيحتان مشوهتان، وأنت بلا حذاء طويل لكي تخفي ذينك القدمين، وبلا سروال، وعيونك لها بريق ماكر، وأنت بلا نهود، وبلا شعر يغطي عانتك، وفمك بشع، وعورتك المغلظة مكشوفة، لك مظهر مومس أيتها الذبابة المخنثة، ابتعدي..

واسترخى شاوشاو ومدّ ساقيه ليجعلهما تحت أشعة الشمس المتحركة نحونا، ببطء، لكن بثبات، ولمحت الشعيرات على ذقنه غير الحليقة بيضاء أكثر مما قدرت، وبدا أنه كان يحترق قبل قليل في مصهر جحيمي وخرج هكذا من الرماد العالق به، وأخرج تلك المارلبورو من جيبه الداخلي، كالعادة، بخفة الساحر، وفكر لحظة ثم مدّها لي، وقلت : علي أن أتوقف عن التدخين يا فتى.. ولم يعلق على ذلك، أشعل المارلبورو واكتفى فقط بتأمل قمم أشجار الكالبتوس قدامنا، ومن الحمق أن يتكلم الآن، ولكنه تكلم، ومن الممكن أنه قال شيئا عن الندوب التي لا تزال طرية، وهل الندوب تتصف بالطراوة؟ ومن الممكن أنه قال أشياء ما زالت حية في الذاكرة، وهذا ضرب من المستحيل، وربما لم يتكلم إطلاقا، اكتفى فقط بتحريك لسانه، فيما الذباب حولنا يدندن، باستخفاف، ينشر في المكان ضروبا شتى من النميمة، والصراعات،

والخلافات الشخصية، وحيث الذباب على شكل تجمعات صغيرة نذر نفسه لاستيطان هذه الصحون القفراء، منفعلا، لئيما كذابا وفاشلا، قليل الحياء.

وهاهي عاصمة الذباب على اليمين، يمكنك أن تنعطف نحوها وتعبر القنطرة لتجد المدينة المسورة بالواد الكبير، ثم تعبر الشارع الذي حمل فيما بعد اسم محمد الخامس وقسمها إلى شطرين، واحد لليهود، والآخر للمسلمين، ولكن اليهود رحلوا، ولم يبق إلا مردوخ الحلاق وموظف البنك الإسباني المسمى خايمي الشاعر، والذبان يحوّم في كل مكان علامة على كثرة الخيرات، وعلى عادات مكينة جعلت قبائل الخلط وجبالة تساكن هذه الحشرة النهمة، وبخلاف الذباب المنزلي المعروف، وذباب الخيل، وذباب الإصطبلات، وذباب مرض الضحك، وذباب مرض النوم، وأصناف البرغش، يمكنك أن تجد هنا ذبابا قادما من مختلف القبائل المجاورة، من مسارة ورهونة، بني زاكار وآل سريف. من بني يوسف وغزاوة، من الأخماس وغربية وأنجرة والساحل، من بني كرفط وبني عروس وبني يدر وبني حزمر وبني ليث وبني سعيد وبني أمصور، من جبل الحبيب يا الحبيب ومن فندق العين، من جبل صرصر وزهجوكة وتطفت والقلّة، من غزاوة ورهونة ومصمودة وآل شريف والخلط ومن مولاي أحمد البقر، من كل

هذا الهباء المليء بجيف القتلى المتروكة حسب كلام الفقيه الحيوني، رحمه الله، وخصوصا حين تسلق الفقيه مع المجاهدين تلك البلاد المنحدرة، وحين احتشدوا وسط المدينة وقت فلق الصبح بعدما تركوا في ذمام الخيل أطرافا من لحومهم على أشواك الأسلاك، ونساء المدينة، رضي الله عنهن، يشاركن بالزغاريد المختلطة بأصوات جميلة تشجيعا لهم، وولولتهن حسب قول الفقيه من أعالي السطوح ورميهن للخرطوش والنقود والحلي، وحين دار الإسبان على المقاتلين دورا عنيفا وهم في حشو المدينة، وحين صرخ المقاتلون وهتفوا بالصلاة على النبي المختار، وحين أضرمت النيران واختلط الدم بصحن الديار والساحات، وحين عبرت الخيول على جيوف القتلى المخبأة في الخنادق وتلطخت بالدماء، وحين سيقت الكواكب والطوابير من كل النواحي، وحين شنت الهجوم أسراب من الطائرات التي كانت تزفر في الهواء، وحين دوت المدافع ترمي الكور والضوبلي من كل ربوة وقلعة، وبعدها أدبر الفقيه الحيوني ورجع القهقرى، ثم تقاطر بعد ذلك المجاهدون من كل حدب وصوب على المدشر لاسترداد الأنفاس وشرب الماء وأكل حبات الكرموس، وعادوا لامتطاء خيول زمور وزيان وانحدروا مرة أخرى وهاجموا الكفار من جديد، وأصبح القتال يمتد من قصر كتامة إلى حدود تطوان على قول الفقيه، والجثث الممزقة في كل مكان، والحرائق يلهبها هذا القيظ الذي دعا به عبد الرحمن المجذوب وصار

قدرا محتوما على المدينة، والماء شح في الواد، والصلاة على النبي المختار يا عباد، وما حاد أحد عن محله حين أمطرت في البداية، ثم تلا المطر سيل غطى ما تبقى وأهال الحجارة والطمي الخُلطي والجبلي على الأسلحة والجثث والخيول النافقة وطناجر البيصار في جبل صرصار، ثم تلا المطر والسيول صوت الريح، نفخت فأهاجت باطن الأرض حين تلقحت بما تبقى من بذار، ودمغت الألسنة بكلمات الحمد، وهدأت الريح تماما ثم سكنت ثم سطعت الشمس خجولة وعيون الفقيه الحيوني فريسة سحرها المغوي، ثم حطت ذبابة على أنف الفقيه الرطب حين تفتقت الأرض بنباتات حذرة، ندية، ترتعش من قدرتها على اكتشاف هذا العالم المبهم، المنعزل، المهيمن، العنيد، والذبابة على أنف الفقيه الرطب تجلب الجنون، تسيطر بعنادها وقدرتها على الإذلال وإثارة الغضب، ليبدو على ملامح الفقيه الحيّوني أحمر قان، والذبابة تتوالد فيما هي تطنّ بطريقة متناهية في البساطة، في سكون الرياح، وفي محلات تبدل الظلال، وعند صمت الكائنات المجنحة، وفي الغسق، ومتى شمت رائحة المياه الجوفية، وفي لحظات شحوب بني البشر، وكل كتلة من بيض إناث الذباب تنفجر وتتحول إلى مئات البيوض، تلصقها على سطح المياه وفي النباتات المائية والصخور، حيث تخرج اليرقات أسطوانية الجسم، باختناقات بسيطة في الوسط، لكن عجيزتها المزودة بمص دائري عليه خطاطيف تأخذ في الاشتغال، وتحرك

الذبابة رجلها الكاذبة الأمامية المزدوجة هي الأخرى بخطاطيف، فتفرز خيوط الحرير من غددها اللعابية، جاعلة ثغورها التنفسية المقفلة إلى الأمام، فيما تلك الزوائد على الرأس تكفي لتحريك المياه كي يصل الغذاء الطافي، ثم تخرج الذبابة إلى زمنها القصير، كائنا يلغو في الفضاء، تسافر حيث هذه الأرض التي شيعت موتاها وشبعت من الدماء والمياه، وحيث أنف الفقيه الحيّوني الرطب هو جزء من عالمها السائل، تكتشفه بقرون الاستشعار الدقيقة، كالرضيع حين ييمم وجهه شطر الحلمة، مهتاجا، غازلا عبر نهنهته الجروية فلكا صغيرا في محيط الخصب، مستجيبا لفتور النهد والجاذبية عاطفته البليغة.

واكتشف الفقيه الحيوني أن أنفه لم يكن هو المقصود، بل كل ما حوله، كأن الذباب لم يأت بعد همود الريح. فقد كان هنا، غير منظور، أخفى نفسه خلف صفير القنابل، والصيحات، والغبار، والدم، وفي الظلال المعتمة، وعاليا، هناك، في السماء، حيث لا أحد، الريح فقط، والعاصفة المجهضة، والقيظ الذي تلاها.

وسحابة بعد سحابة، تحول الذباب إلى سيد المدينة، تراه قبل أن تصل، وتراه وأنت تجتاز خط الحدود القديمة، وأنت تخترق بناية الديوانة ذات الجناحين، وصف حوانيت الفخارين، وقنطرة السكة الحديدية، ونقطة رجال الدرك، تراه وأنت تنعطف نحو اليمين تسير بمحاذاة الواد الكبير، قبل أن تصل إلى قنوات السد، وقبل

المطحنة والمستشفى، وسور البرتغال، ومعسكر الإسبان القديم. تراه أمام البيوت وعلى الجدران، تائها، عاطلا بلا معنى، ملاعبا وجوه وأغراض سكان المدينة، من سيدي اللغميشي، المشهور بالحساني، وبن يسف، والسوماتي، والشنتوف، مرورا بالشريف المكي القادم من مدشر عين البيضة، تراه يحوم حول الأمين العلمي، والحليمي، وبن ريسون، وغيلان الجرفطي، والفقيه المفضل بن عجيبة، وسي الطاهر الحراق، والساحلي، واليملاحي، والخمسي، عبورا بللاّ خدوج بنت الطاهر الخمال، المعروفة بخدوج التجالة، وللا رقية القلعية بنت العياشي الزلاّل، مرورا بالسي علال الزّنْبوق، والبختي، وقطيوط. والقسطيط، وشقور، وبنيس الذي علق صورة الجنرال خوردانا على باب حانوته بالقيسارية، والحاج العاقل، وسي الرغيوي، والقايد بنقاسم وأولاده الذين مارجعوا من أمريكا، وبا الهاشمي صاحب هواري بومدين، وسي محمد الشاهد الشركي، والعربي الحداد والزريرق، والمدعو تاج الدين الذي يدّعى النبوة ويعيش في حي اليهود، والكومسير خربوش، وعلي الزيبق قارئ الكف من حمادة الغزلان، والخضر، والشريف الوزاني، والبوهالي الزكاف، والحلاق الأنجري البارع في مص الدماء من القفا لعلاج الشقيقة والطيوح. وصاحب المروءة والإحسان، البطل المقدام الذي أرغم القبطان بلانبو على أكل ظلف الهندية عندما وقع أسيرا في يده، السي عقار من جبل العلم، وحميدو شريف الزاوية من بني

يطفت، وفلالّو السكليس، وبانتشو، والمردة المدعو الدص، وسيد الغالي ابن العدل سيد مختار، وأحمد، ومحمد، ومصطفى، إلى آخره إلى آخره، عبورا بضريح الولي الأنصاري، وابن غالب، وبوعسرية، وأبي المحاسن، وعبد الرحمن السبع، ومسعود، وعيسى المصباحي، والحيتوني، وعلي بن قاسم، وقرقوش الغماري، وعلي الوافي، وبوعزة الزبير، والعفاني، والمصمودي، وبوسلهام القصري، وفاطمة الأندلسية، وانتهاء بالحمير والكلاب والبغال المحاصرة في الأزقة المغلقة، ترى الذباب دائما، ليلا ونهارا، وفي كل مكان، على الرأس والعين والأذن والأنف والشفة وعلى العنق والصدر وما تحت الصدر، يحوّم حول كل المواد الجاذبة والماسكة والمهضومة والدافعة والغازية والنامية والمولدة والمصورة، يحط على الأجسام الذهنية وعلى النبات والشجر والحجر، على البلوط والتوت والهندية والجميز والإجاص والرمان والزيتون والسفرجل والفلفل والقصب والليمون والمشمش والدلاع والنارنج واللبلاب والتين والزيتون مرة أخرى، ويحط الذباب على شروج الكلاب والحمير وعلى أبواب البيوت والمساجد، ويوجد في مكاتب البلدية وفي أرصفة المقاهي المفتوحة على أزقة متربة، وفي قلب الأرملة وعلى ابتسامة العاهرات وفي مداد قلم الباشا وفي العمش وداء القوباء الموجعة، في كلمات النميمة ومشابك شعر النساء وحديث الأزواج وقبل النوم وبعد الصلاة وعلى ممسحة الأرجل، يوجد الذباب في

قراراة النفس وفي وحل الأيام وفي دفاتر التلاميذ على شكل حروف منقوطة مدورة مبسوطة معرّقة ملتوية العنق متباعدة الجذوع والسيقان رتيبة صارمة مشبوهة يلفها الدوار الخفي مثل هذه الحروف التي أمامك لحسن الحظ تفتنها الجاذبية للمكان حيث الأشياء تنضو عنها الحجب لتغوص في هذا المخبوء بطريقة غامضة غير مفهومة.

وتسلقت ذبابة زجاج السيارة الواقي في محاولة مستحيلة لاختراق المادة الشفافة، وحوّمت أخرى حول البتول ذات العينين الجميلتين وحطت أخيرا على الأنف الرخامي للجثة المستريحة في الخلف، ولم تتحرك الذبابة، بل تجمدت هناك بين المنخرين مفتتنة برائحة الموت، وفي موضعها بدت الذبابة هانئة، فيما أنف المرحوم بدا أضخم من المعتاد، قاسيا، واضعا حقيقته الحسية في علبة النسيان.

ورفعت الزجاج الجانبي للسيمكا كي لا يدخل مزيد من الذباب، وسعلت الحاجة بشكل متصل ومدت إليها ذات العينين قنينة الماء، وصبت الحاجة في جوفها جرعة والتفتت إلي: أتشم هذه الرائحة؟ وأخرجت من تلافيف جلبابها قنينة عطر من نوع الشابو وفتحتها لتطرد رائحة الموت، وفاح العطر المهرّب لحظة ثم امتلأ دماغي بذلك الصخب الذي ينتج عن الاختناق، وأخذت

السيارة تتمايل، ورفعت قدمي عن دواسة البنزين وملت إلى جانب الطريق، وسمعت الأرض من تحتي تتمزق، وصاحت الحاجة : ربي، ما الذي جرى؟ وقلت لها : اغلقي زجاجة العطر أولا لأتكلم، ولم تفهم، وقالت ما الذي وقع؟ ورفضت الجواب، فتحت باب السيارة وأنا أتوقع الأسوأ، وأحنيت رأسي، فيما العجلة الأمامية للسيمكا تزفر آخر أنفاسها، وكوكبة من المتسابقين ينظرون إلي باستطلاع، راكبين دراجاتهم الخفيفة، يمرقون بجانبي كالبرق، في اتجاه عين العبيد على سفح غابة البلوط.

ونسيت تماما تلك الغابة الصغيرة من شجر الصنوبر، ندخل إليها عبر البوابة لنصل إلى بناية المطعم الصيني، وتلك اللافتة الصفراء مرسوم عليها رمز لا يقرأ، وناني تلبس قفاز الشاموا، وعلى البوابة رجل قيل لي إنه من قبيلة حاحا يرتدي زي الساموراي، والمدخل المزين بالنباتات والزليج الأزرق، والخادمات المؤدبات، والركوع المستسلم للإله الزبون، والأرضية المفروشة بالسجاد، والفخار المزوق بخطوط الذهب وبجبال وطيور تسبح في الصباح الباكر، والمدفئة المشتعلة، وتنين ينفخ النار، وحذائي المغطى بالوحل، وأنا مجرد مغامرة صغيرة في ذهن ناني، والموسيقى الخافتة الموازية لدقات القلب، وفاتي تتبعنا تحمل معطف المدام وتقدمه لعاملة الاستقبال، وفودي سيتأخر قليلا، لا يهم، وبعدها الباب الصيني المسحوب،

ونخلع الأحذية لنبقى بالجوارب، وناني تقول : نينو، البس البانتوفل، هو طقس العشاء الأول، وناني ترشق الخادم الدمية الصيني الأصفر بغمزة غير منظورة قبل أن توجه إليه كلمة، وفهم الخادم وأحنى قامته قبل أن ينصرف، والأقداح تأتي واحدا إثر واحد، ومواعين لا عدّ لها تملأ هذه المائدة المنخفضة، والطباخ قبالتنا يبتسم لنفسه وينهمك في العمل من جديد، وهذا الكحول القاتل المقطر مع رواسب الأرز المخمر، وقدم ناني الموضوعة على حجري، تلعب بأحشائي، وقفاز الشاموا لم تخلعه بعد، والمرق اللاذع الحار الأحمر القاني بزيت الخروع، وناني تقول لا. أفخاذ الدجاج أحسن، حلوة ومعسلة تنتجها شركة كانتاكي، وقدمها تذهب وتجيء قبل أن تعثر على الشيء الذي تعرف مكانه، وكفها المغطاة بالشاموا موضوعة على الفخذ، وهذا الشيء المكور على الصحن ماهو، وتريدني أن أضحك، وأتذوق الشيء دون أن يحدث شيء، وتقول : ألا تعرف طريقة الاستعمال؟ لا أدري، ولكني كنت أضحك وأنا أقبل راحة القفاز، وكان عليها أن تخلعه ولكنها نسيت، وأنا أتصور شكل غرفة نومها، وهذا واضح، تقول، أنت دائما تختلس النظر إلى سروالي، وقلت : لنقل إنها عقدة السراويل، وضحكت، وماذا تحت الصاية، لون القشدة أم عين الشمس، وقالت، كل ما أرتديه على جسمي أراه من الخلف بنظرة جانبية، ومن الممكن السماح لك بذلك، واستدارت

نصف استدارة، وهي تعلم أنني أريد أن أفعل كل شيء بسرعة لأحصل على هذه المتعة، وهذا العشاء طويل طويل، والنظر إليها يجعلني أشعر بالجوع، وقدمي الآن مشغولة بساقها، وفاتي كأنها لا ترى، غير مهم، كأنها لا تدري أين كنت، وإلى أين أنا ذاهب.

نسيت تماما ذلك، ونسيت أيضا أن هاني شحب لونه قبل أن يرانا، وحين رآنا بدا كمن سيرتكب جريمة، وبالفعل، قال، نسيت النقود، هل أعود؟ وناني تقول : ياللك من مخادع، أنت لا تغار، ولكنك تحسد نينو، وأضافت : أو صيت على عشائك يا فم الثعبان، وقلدت شدق الثعبان بأن فتحت فمها إلى الآخر وضحكنا، ومدت إليه الصاك فيه كيس بلاستيك محشو برزم النقود، وقالت هاك، خذ ثمن العشاء ولا تسرقني يا هاني كالعادة. وأخذ هاني الصاك ووضعه بجانبه، وكنت أتوقع أن يأخذ النقود أمامنا، لكنه لم يفعل.

ونسيت أنني رمقت هاني، فيما بعد، يدس شيئا ما في جيبه الداخلي، والصاك مفتوح، وفودي يلتحق بنا متأخرا، كالعادة، وقال : صفعت حارس السيارات على الرصيف، الحمار، قلتها له، وفاتي تضحك تضحك، ربما، على شيء آخر، وناني تفهم ذلك، تقول لنا، سيأخذها إلى شقة بوركون، وفي الغد، تأتي إلي وتقول ظهري يؤلمني، والناس لا تأكل الصّوصيس من الظهر، بل من الفم، من أي جهة أمامية أخرى، ولذلك لن أسمح لها اليوم، ونسيت

تلك القصة حين حكيتها، وحين حكيتها دمعت عينا ناني، والقصة تجري يوم بدء الخليقة، والقرد المكلف بتوزيع الأعضاء التناسلية يضع المواعين والصرف على السماط، والحمار هو أول من يستيقظ، يأخذ مكانه في مقدمة الصفوف، خلفه البغل والكركدن والروسي إلى آخر قائمة الحيوانات والأجناس، وبالطبع، استعرض الحمار كل هذه الخيرات على السماط، هو الأول بالطبع، واختار لنفسه ما يريد، وارتعدت ناني من المتعة تنظر إلي قبل أن يتطاير ضحكها في أبهاء المطعم، والضحك يتساقط على الرؤوس، والخدم يضحكون أيضا، بالطبع، يضحكون علي ضحكنا المتطاير، وناني توقف نوبتها تدريجيا، مستحيل، أمر لا يصدق، وتلتفت إلى هاني، مستحيل، لن أقول لك بعد اليوم يا هاني أنت حمار، وقالت، جربت معظم أجناس الأرض، وملاحظتك يا نينو عن الروس صحيحة، وتدخل هاني، ولكنك تمزحين، قولي له ذلك، وقلت، ولكن الأمر ليس هكذا، والروسي جاء هكذا، على سبيل المثال على سبيل ماذا؟ تقول ناني، أنت لا تعني ما تقول، الموضوع صح يا نينو ، وقلت، إذا كان صحيحا، علينا أن، وتسرب فودي إلى الحديث، قال: علينا ماذا؟ وفكرت، وكنت أريد قول شيء آخر، ومن الممكن أنني نسيت، كنت سأطلق أي كلمة، ولكنني نظرت إلى فودي، وتخايل لي، بقامته القصيرة، وملامحه القريبة من ملامح الزعيم النقابي ولهجته المتعالية المتعدية، وهو ينزل من

سيارته الغاضبة، والحمار على الرصيف، يلوّح بيده، ويقترب، ويلمس كم فودي لغرض ما.

ونسيت حقا، آه، ما أكثر ما نسيت لحظة عادت ناني بالزمن إلى الوراء وأمسكت شريحة طماطم بأصابع الشاموا، وعرضت شريحة الطماطم أمامنا، لنراها، وقالت : أين كنتُ سأجد هذه قبل سنوات؟ وهي لا تدري أنني أجهل قصدها، وانحنى هاني على أذني، قال : ناني تتحدث عن أيام السجن، وقلت : ولكن إسرائيل أطلقتها يا هاني، هي الآن في حماية البابا، وتدخل غرفة نوم الرجل الكبير، وتلاعب الأولاد، ماذا تريد أكثر؟ وهمس هاني : كل ذلك غير مهم، مقابل الإهانة، وكانت ناني وقتها تقول : انظروا إلي، ألا أبدو رومنتيكية، امرأة رومنتيكية رصينة؟ وامتقع وجه هاني، كان يعرف أن ناني على وشك البكاء، ولكنها عوض أن تبكي أخذت تضحك، وضحكت ثم ضحكنا معها، وكنا على يقين أن الجن يصرخ في داخلها، وها قد استيقظ الآن من النوم، وتعلقت فاتي بذراع فودي وحاول التملص منها في حين كانت ترتجف وهي تقول : ماما، أنا خائفة. وفودي يرد : لا داعي للخوف، ناني تتألم فقط، وهذا كل شيء.. وبعد قليل رأينا ناني على تلك الصورة، وهي تصرخ مستغيثة، ويداها الملفوفتان بالشاموا تقاتلان الهواء، ويداها تبحثان عن جسد واحد منا، وأبعدت عنها جسد هاني الثخين، وأخذ وجه فاتي الحمراني

الموروث عن الباشا الگلاوي يتحول إلى اللون الأصفر العكر، واستيقظ الجن فينا في هذا الليل المتأخر، ثم أخذت بيد ناني ووجدت أن يد الشاموا تتعلق بي هي أيضا، وأخذ الجن ينام، لم أحاول انتزاعه من سباته لأنه تعلق بي مرة أخرى وهدأ تماما، وأفقت على نفسي لأجد ناني على صدري تتنفس كالطفلة الغضة، وكلهم، فاتي وهاني وفودي، صامتون، أتلف الصمت حواسهم وأربكهم، وهذا كل شيء.

نسيت كل ذلك حقا، نسيت حين التحقت بنا السيدة البهية ذات الفخذين وتحت إبطها كومة مجلات وجرائد، وعلى لسانها الحمد والشكر للّه، وتقول، أنا يسارية، واليسار طلع إلى الحكم، وهذا يعني أنني في الحكم، أليس هذا خبرا سارا، ويعلق هاني، لو حدث هذا قبل سنوات لقلنا هو نوع آخر من الانقلاب، الدنيا تغيرت يا ست... وأضاف، إذا أمكن فقط إقبار الملفات القديمة ستكون الدنيا قد تغيرت فعلا، وهذا سيمنح الجميع بعض الأمل.. وهل نطق هاني بكلمة أمل؟ وماذا كانت تعني هذه الكلمة وقتها؟

نسيت فعلا كل ما قيل من سخافات، ونسيت حقا أنني لمحت ذات الفخذين تستمع إلي بانتباه وأنا أستعرض معلوماتي الناقصة عن فوائد الفيتامينات، وتذكرت التلميحات المحذّرة لي حين قالتها تلك الليلة، بلغتها الشرسة الناعمة، ويدي على ركبتها، كأن الخضوع لها يعني الدخول إليها، إياك إياك، أنت تمشي على حد الصراط يا هذا.

نسيت فعلا متى التحقت بنا السيدة البهية ذات الفخذين، وحقا، لا يهم ذلك، تذكرت فقط أنها التهمت قطعا من صدر الدجاج المشوي، وعلبة بيرة، وتأملتها وهي تشرب، ووجدتها جميلة، تلك المرأة، في الواقع، وصدقت نواياي المعتمة تجاه حفنة الأعصاب المشدودة على جسدها المدلل، وجعلتني قطرة شراب تسيل من زاوية شفتيها أتهاوى كبناء من قصب، ونانى تستفيق الآن حلوة كالطفلة مع أن وجهها أشد قسوة من المعتاد وهي تقول : هاني، هاني، إلى البيت.

ونسيت فعلا هذا الذي يبدو أمامي أشبه بالبياض، ربما هو لون قريب من لون العسل البني الخفيف ينحدر نحو بياض شاحب لا شك أنه بداية المنطقة التلّية المغطاة من ثدييها البضّين، وهما ينكشفان حين تنحني، وحين تهم بتمزيق القطع الصدرية على الصحن، ثم وهي تستدير نحو هاني الذي وضع الصاك المليء بالنقود على كتف، وعلى الكتف الأخرى تعلقت ناني، وهما في اتجاه باب الخروج، لكنني نسيت فعلا كل ذلك وأنا أهم بتطويق نصفها.

نسيت أن غابة الصنوبر الصغيرة ونحن خارجان كانت مظلمة، وأنني حين تمسكت بنصفها وضعت رأسي المرهق على كتفها ونحن سائران باتجاه السيارة، وهي تقول، سأوصل نينو، وأنا سأتبعك يا مصطاف، واحترم قانون السير، ونحن بلا شك

سكرانين، ويدها تختم على التحول الكبير في داخلي حين وضعت رأسي على صدرها العامر المليء بماذا، المليء بألف سر، وبملذات ومسرات، وبترحاب رقيق يحلو له أن يخفي نفسه في الظلال، وفـي الــروائح المضللة للمرأة، حيث لا وقت للعبة الغزل والرقاد، ولا وقت للكلام.

اسسس. لا وقت للكلام، وأنت مسكين يا هاني، بطنك المنتفخة، وبزولتك المكورة. هاتها، لنبزّلك، وفكرة السفر في القطار السريع لمنتصف الليل أحسن من ثرثرة النساء، وكل ما فيك قذر، تنطح كالأعمى، وتخترع الأكاذيب، آه، أين قنينة "البوردو"؟ وهل تستطيع أن تكون أبله مثلي؟ سكير بالفطرة مثلي، أنت، أيها المسكين. وماذا قلت؟ ناني مصابة بمرض خبيث، هراء، ناني امرأة فقط، بيضة من ذهب، مؤسسة ضخمة، طفلة من خزف، مخلوقة بائسة، نصف يهودية ونصف مسلمة، لها من كل لون رقعة، ولا تخفي سراويلها الداخلية، وأنت يا هاني مجرد صفحة من ورق في هذه المجاري المسماة حياة، تنثني كالثعبان، ولسانك المتثاقل يكذب: ناني ألقموها التوكال، دسوا في طعامها سم النساء الهاري، ومن يستطيع أن يصدق ذلك؟ ولم لا نصدقه؟ هات إذن

قنينة البوردو، وأرح قدميك على المقعد المقابل في عربة الدرجة الأولى من قطار منتصف الليل. هكذا، مثلي تماما.

وتجاوزني سرب دراجات السباق. فتحت الصندوق الخلفي للسيمكا وأخرجت العدة وعجلة الاحتياط وشرعت في العمل. ولم أستطع، وأنا أسترق نظرات إلى المرحوم وأضع الافتراضات، عليّ أن أصل إلى نتيجة منطقية، لم أكن أنا الابن الذي اغتصب عرشه وأهينت كرامته، لكن الأب المقتول في مستشفيات الدولة خلفي، وأمي الآن تبدو مثل ملكة مذنبة، أما هذا المخلوق النقي المورد الوجنتين الذي هب لنجدتي فمصر على الغياب، كأنما سيعيش حياته الباقية في حزنه الدفين.. ألست أصنع بكل هذا الأثاث من الوجوه إحدى خواطر شكسبير الضالة؟

وأيقظني بوق شاحنة مرت قربنا، ولم أعد أصغي إلى ما تثيره في المخاوف الغامضة، أي نعم، أمامي عمل كثير، ولم أسدّد ديوني بعد.

وارتسم على وجه الحاجة تعبير أشبه بالارتياح حين جلست مجددا أمام المقود، لكنه ارتياح متعفن، وقالت : ربي معك. وبحثت في المرآة عن وجه البتول، وتأكدت أن الروح ما زالت

تسري في وجهها الشاحب، قلت : أفضل أن ترشي وجهه بقليل من الماء، الماء أحسن عطر، أليس كذلك؟ وتمتمت بكلمة لم أسمعها، وقلت بنبرة ماجنة: ماذا تقولين يا ملاك الموت؟ ما نوع الكلمات التي تسقط في شونك؟ وتظاهرت الحاجة بأنها لم تسمع كلمة، بينما استعملت البتول أسلحتها الخفية، كشفت عن حافة وجهها البيضوي وامتدت سحابة من الظلال حول عينيها فبدتا لامعتين، واستيقظ الكلب العتيق في داخلي ولحس زوايا فمه، وبان وجهي السفيه في المرآة أشبه بوجوه فقهاء القرى، ونطق لساني بكلمات مضللة : بسم الله، لم يبق إلا القليل. وجعلت السيمكا تشخر وتطلق غازاتها حين انطلقت بالسرعة الثانية وأنا أفكر، كم يلزمني من وقت لأصل إلى كوكبة المتسابقين..

وضحكت حين رأيت المتسابق يؤرجح عجيزته يمنة ويسرة وهي معلقة في الهواء، ومضى، يا له من شاب، وطلع من جواري دركي يمتطي دراجة نارية. ولم أسمع ما يقول، أشار لي أن أركن السيارة جانبا، وتأوهت الحاجة، وفهمت أنها تعني أن اللحظة حانت الآن، وإلى أين إذن يا مرحوم؟ ووجهت السيمكا بيسر نحو جانب الطريق دون أن أتوقف، ومرقت كوكبة أخرى هزيلة مكونة من ثلاثة أو أربعة متسابقين تصعد التل. وتبعتهم بنفس السرعة

المتهالكة، وكنت أخشى أن تفضحنا رائحة المرحوم، وقلت : لنواصل إهانته، افتحوا جميع النوافذ، أما أنت يا أخت، فحاولي أن تجعلي عينيه مفتوحتين، على الأقل، ليتفرج على ما يجري حوله، أليس هذا هو المنطق السليم؟ ورأيت البتول تدلك وجه المرحوم بنوع من الكريم ذي رائحة مميزة. وقلت : ما هذا؟ وأجابت الحاجة : كريم نيفيا. ولم أتوقع هذا الجواب، وشعرت بأحدهما خلفي يتفرس في. ونظرت عبر المرآة. كان المرحوم يشبه سقراط الذي خرج من منزله اليوم، نظرته الغائبة متجهة نحو قدميه أو ربما إلى ساقي البتول، بينما فمه نصف المفتوح يخفي لسانا مسحوبا، يجعل كلمات الزمن القديم بلا معنى. وها أنت ترى، تنظر باشتهاء إلى ركبتيها وفخذيها المنحوتين تحت الجلباب، وهل رأيت حقا ذلك بعينيك، لا أظن.

وكنا محاصرين هذه المرة بكوكبة أخرى من المتسابقين وبرتل من سيارات المنظمين. وبدا أن بعض المتسابقين يتوقدون حماسا، لدرجة أنهم كانوا يبتسمون لنا حين نحييهم بكلمة آها.. سيييير.. أو آها.. رووول. وفيما كانت عيونهم المرحة تستجيب لكلماتنا العامية كان المنظمون ذوي الأسنان البيضاء، ينظرون إلينا بطريقتهم المريبة، كأنما تريد أن تقول تلك النظرة : لا تحاولوا مرة أخرى. أنتم مجرد مسافرين عاديين. ولا تفسدوا نظام السباق..

وتجاوزتنا سيارة أخرى وانحنى أحدهم بتحية وقورة للبتول القابعة خلفي. الحمد لله. وجه البتول الصافي يستطيع أن ينحّي عنا تلك الشكوك الصغيرة، وأن يصير موضوعا للغزل العفيف، وحل مباشرة بعد مروق السيارة دبيب خافت تصاعد بعد ذلك على شكل صوت عدد هائل من المراوح كشف عن عشرات المتسابقين بوجوههم الحمراء وهم ينحدرون متلاحمين بسرعة هائلة دون أدنى حركة غير حركة الريح المقاوم لهذا الاندفاع اليقظ المسترسل، ولم أسمع بعدها صوتا، ودفعت من جهتي محول السرعة نحو النقطة الميتة وجعلت السيمكا بدورها تندمج في روح السباق الذي منح ذاته للريح وللمنحدر المفتوح على مسافة حرة. وتشبثت الحاجة بحافة المقعد. سألت : هل توقف الموتور؟ قل لي. قلت : لا تخافي. كل شيء على ما يرام. بينما السيمكا تحولت إلى كائن رقيق، تنحدر بتواضع خلف المتسابقين وهي نفسها تسابق الريح وتعطيك الإحساس بأنك تطير، وكأنك قطعة من السحاب، فيما الموكب كله يبدو مثل قطيع من الخرفان العالقة بالسماء.

يا له من تعبير سخيف يعادل بين خفة الريح وخفة الروح التواقة دوما لخالقها!

ومن زرع بذرة الحياة في جسد ناني؟ الله، طبعا. أجابت

فاتي. وأضافت : الروح تصعد إلى السماء، والجسد يدفن في التراب، وهذا ما أعرف. وتدخل هاني : كل شيء بالمقلوب. وقلت : ماذا تقصد؟ وردت فاتي بالنيابة، ألا تفهم؟ وما الذي ينبغي أن أفهم، أن تدفن الروح ويصعد الجسد. قلت، وأكمل هاني : تماما. وأضاف : وعند الحاجة، ينبغي أن نأخذ ملابسنا وباقي الأمتعة. وتكلمت فاتي، واضعة أصابعها القصبية على بزولتها الضامرة : المهم، هو مع من سنصعد إلى السماء. وضحكنا. وعلق هاني : بدأت المسألة تنقلب إلى غم، وأكملت : خصوصا عندما تلعب الخمر بالرأس، وجاءنا صوت من العتمة : تضحكين على من يا فتاة؟ وكان صوت ذات الفخذين، ومدت لي أصابعها : كيف الحال؟ وقلت : لا أدري. وكانت كفها باردة. ومازال هاني يضحك، ووجه الكلام إلى ذات الفخذين : شاركينا هذه الجلسة الماسونية، واستمعي إلى ما تقول فاتي. وردت ذات الفخذين برصانة، وهي تأخذ الكأس من يد فاتي التي قدمته لها : ما الأمر؟ وضحكت فاتي بدورها : لا تستمعي إلى هذا المتسكع.. وقاطعها هاني، موجها كلامه دائما لذات الفخذين : تصوري، هذه المرأة الصالحة لها أخلاق جلاد، تنوي، بالسلامة، أن تطارد فودي حتى الدار الآخرة. وواجهتني ذات الفخذين بوجه مبتسم متسائل : لم أفهم. وقلت : يبدو أننا أكثر موتا من ميت

حقيقي. وتدخلت فاتي : كل ما في الأمر أن هذا الرجل، ووجهت أصبعا مخلبية نحو هاني، حجز لنفسه مقعدا ليسافر بجسده إلى الجنة، وأضفت : وهذا السفر لا معنى له دون رفقة. وأكمل هاني : دون رفقة حبيب القلب الغالي. وقلت موضحا، وبالمناسبة، اسم هذا الحبيب الغالي فودي. واندمجت ذات الفخذين في موجة ضحك ثانية : فودي يا فودي، أين أنت يا فودي لتسمع ما يقال في غيبتك يا فودي؟! وتملكتني نوبة سعال، فيما اغرورقت عينا ذات الفخذين بالدموع، وهي تغالب شهقات ضحك متقطعة، وانحنت فاتي وقتئذ على المائدة لتحرر شيكات كان قد طلبها هاني، وقالت : ما المشكلة إذن، أن يرحل فودي معي إلى الآخرة خير له من أن يشنق مع زوجته المناضلة؟ وواجهتنا بعينين برز بياضهما، وأضافت، بمناسبة الحديث عن الآخرة، سأطلعكم على أمر لم تعرفوه من قبل، انظروا من فضلكم، ومدت إلى هاني الشيكات، وقالت : كل هذه الشيكات بلا رصيد، ألا تكفي هذه الحجة كي يحكموا علي بالإعدام. ولم يوافقها هاني : ليس إلى هذا الحد، وأضاف : منذ البداية قلتها، كل كلام مع فاتي هذا اليوم ينقلب إلى غم. قلت أنا : لا بد أنها تعني شيئا آخر. ورمقتني فاتي بنفس النظرة العكرة، قالت : لا تتكلم أنت، خصوصا أنت. وتدخل هاني : تلك عادته، نينو ينقلب إلى

مشاكس كلما شرب كأس سكوتش، وغيرت ذات الفخذين مجرى الحديث، وكان لصوتها رنين خاص، سألتني : هل رأيت فودي هذه الأيام يا نينو؟ أجبت : لا أتذكر، ربما رأيته قبالة الديسكو قبل يومين مع أحد ما، إلا أنني كنت أسرع كي ألحق بموعد القطار.. وتدخل هاني جادا : قلت رأيته مع أحد ما؟ قلت : نعم. قال : تقصد فودي. قلت : نعم. قال : ألا تعلم؟ قلت : أعلم ماذا؟ قال : ألا تعلم أنه توفي. قلت : من؟ قال : ألا تعلم أن فودي مات؟ قلت : ماذا تقصد؟ قال : فودي مات. وانفجرت فاتي في وجه هاني : لا بد أنك تمزح.. هذا المزاح لا يعجبني، كفى أرجوك، ولم تتغير ملامح هاني الجادة. ووزع علينا نظرة مليئة بالشقة، وتكلمت ذات الفخذين : أكيد أنك تمزح يا هاني، وأشارت بأصابعها المخوتمة نحو فاتي، ربما فارقته قبل خمس دقائق لا غير. وتساءلت من جديد، دون أن أوجه السؤال لأحد : من الذي مات؟ ولم يرد على سؤالي أحد : وتوقف هاني، حاملا كأسه بيد، بينما يده الأخرى ترفع حزام سرواله المفتوح، وخاطب فاتي : هل رأيت شيطانا في حياتك؟ ردت فاتي بحدة : لم أر أي شيطان في حياتي ولكنني أراه الآن قدامي، وتواطأت نظراتنا، أنا وذات الفخذيم، وتركنا خيط العقدة ينحل، وتكلم هاني : إذا لم تري الشيطان فأنت لم تري فودي منذ عدة أيام، وفتحت فاتي

فمها لتتكلم، ورن جرس التلفون بحدة، ومدت ذات الفخذين بنصف جسدها العلوي وأمسكت السماعة وهي تقول : الله يبعد عنا البلا. وبقي فم فاتي مفتوحا. آلو. صاحت ذات الفخذين، وبقي هاني مسمرا في مكانه ينتظر، وأكملت ذات الفخذين : لا علم لي.. سأخبرك في الوقت المناسب، باي باي. وأغلقت الخط، وتساءلت : أرى وجهك شاحبا، ماذا هناك؟ وقالت ذات الفخذين : يسألون من هناك عن صحة ناني. وأضافت : الجلوس معكم أحيانا ينسينا شهادة لا إلاه إلا الله. حشومة. وأفاقت فاتي من ذهولها، وجمعت الوقفة، وانحنت على الأوراق والشيكات ووضعتها في ملف وخاطبت ذات الفخذين بكلمات منكسرة : سأصعد فوق لأرى ناني، ربما تكون في حاجة إلي. وخاطبني هاني، وهو يتبعها، دون أن يلتفت إلي : اشرب كأسك يا نينو ولا تهتم. الناس الزوينين هم الذين يموتون. أما أولاد القحبة.. ولم يكمل هاني. كنت أعلم أنه اختلق خبر موت فودي ليغيظ فاتي لسبب ما، لا أدري ما هو. وصببت لنفسي كأسا أخرى وحملت القنينة وأضفت قليلا إلى كأس ذات الفخذين نصف المليء. وأخذت ذات الفخذين آلة التحكم وأشعلت التلفزيون وتلاحقت الصور أمامنا ثم استقرت على ظهر حاملة طائرات. وقالت ذات الفخذين تخاطب نفسها : عاش اليانكي. وتلفتت نحوي بوجه

منفعل مشرق بدماء حارة، وأمسكت بكفي : انظر يا نينو. حرب أخرى في الخليج. إننا نراها، الآن مباشرة على الشاشة. والتصقت بظهرها ثم شممت عطرها. أمسكت خصرها وهمست خلف أذنها : ليس لدي الآن أدنى شك. تملصت من بين يدي واستدارت نحوي : شك في ماذا؟ قلت : ألا تعلمين أن رائحتك لها رائحة البارود. وابتعدت خطوة إلى الوراء، قالت : أعوذ بالله.. من أين تعلمت هذا الغزل؟ طلبت منها أن توقف صوت التلفزيون، وأضفت : على الأقل، كي لا نسمع صوت القصف. أتفهمينني؟ وابتسمت ذات الفخذين أخيرا : علّمك الله، أحاول فعلا أن أفهمك، لكن يبدو وأنني أصب الماء في الغربال. واستلقت على الفوتوي المقابل للشاشة، وانعكست على وجهها وباقي أعضائها أضواء القصف وأدخنة المعارك الصامتة، وفكرت : أستطيع الآن أن أشاهد المعركة على وجهها حين تتناوب الألوان والأضواء المنبعثة من الشاشة، وهي تنعكس على وجهها المقنع بالذهول، ولم يستغرق ذلك سوى لحظات، انحنت ذات الفخذين ورفعت علبة السجائر واستلت واحدة منها وانتظرت. اقتربت وأشعلت البريكي قريبا من وجهها وتأملت لبرهة هذا الوجه العجيب. وقالت : ماذا بك؟ قلت : لا شيء. ثم سألتها : من تكلم في الهاتف؟ لم تجب في الحال. ثم قالت : شخص ما. قلت:

أعرف أنه شخص ما. من هو؟ ونفثت سحابة دخان على الشاشة اختلطت في الحال بدخان المعارك. قالت : شخص ما من دار المخزن. هل هذا يكفي؟ قلت وأنا أرسم على وجهي ابتسامة متفهمة : فعلا، هذا يكفي، أنا أعرف الباقي. وصببت لنفسي كأسا أخرى. وصاحت ذات الفخذين وهي تمزق هذا الصمت وهذه العتمة الكابية : انظر يا نينو. هذا أشبه باحتفال كرنفالي، السماء مرصعة بالنجوم وبالشهب الاصطناعية. ولم تتوقع مني أي رد فعل. أطفأت سيجارتي واقتربت منها، جلست ملاصقا لها ووضعت كفي على ركبتها. لمعت عيناها. استرخى جسدها. وقلت : أحب هذا الصدر. قالت : اصمت. ستوقظ الموتى. وقلت : أنت وردة. وردة غضبانة، حالمة، حانقة. ودفعتها برفق إلى الوراء. ومرّ الهرّ الأسود بحذر ناحية الصدر وابتسمت، رأيتها تبتسم وعيناها مفتوحتان على مشاهد المعركة. وقلت : من أجل هذا الصدر تدك وتحرق المدن وتصعد الأرواح إلى السماء. وقالت : اصمت. لا تكثر من الكلام. وبدا أنني أسمع صفارات الإنذار، تتناغم وتتصادى وتغرد كالعصافير، وإذن مساء الحب. مساءالموت. مساء الحمم. انهض، انهض واركب العربة، ودع كفها تلمس تفاحة آدم. واستعمل براعتك في فك ألغاز حواء. وتنهدت حين أمسك الهرّ بمخالبه الشعر الوفير، لجام القيادة وعيناها

مفتوحتان، ترمقه وهو ينساب بين فخذيها البرونزيتين، ثم وهي تسكب من شفتيها المتهورتين شراب الرحيق الكثيف إلى شفتيه، وهو يدندن ويشرب ويعصر ويخب ويجري وينظر إلى شروقها وهي منفرجة وأنوار القصف تحت قدميه وهي تقتاده بيدها، على غير هدى، باضطراب، تتأوه من أجله، وعيناها، لا تغادران أرض المعركة، ثم وهي تهبط منتصرة نحو لحظة الغروب، رويدا، وهي تشحذ الشهية بالأنين والزفرات في انسجام تام مع وردتها، وهي تعلو وتهبط، وتقول : ادفع. ادفع. اضرب. اضرب. وأقول : صبرا. صبرا. لا أحد هنا، وهي تعلو وتهبط، مع القصف، وعيناها مفتوحتان على سماء متوهجة باللهب، نظرة عنيدة، متلألئة، آه. لا أحد هنا، ولم يسمع شهقتها الأخيرة، تتبع فقط عينيها، حين انسلت نظرتها إلى الشاشة، تشاهد المعركة الإلكترونية النظيفة، ثم توسلت، آه، بإلحاح، وابتلعت هذا اللحن المطاط المشدود،، بعيون عنيدة، وقرصت ظهره، ولفت ركبتها وسجنته بين ساقيها، وعضت كتفه، وارتد ثم اندفع إلى الأمام، والتهب ما بين فخذيها، وشرد وعاد إليها يلهث، وشعر بأوتار أحشائها تنبض وهو يقذف برغوة كأسه الفياض إلى جوف شفتيها الغليظتين المشعرتين، وجاء إليها على عجل، محروقا، ملتهبا، كائنا من حمم، ثم سُمع دوي عال، نغمة عالية، حادة صافية، في حين، توهجت الشاشة بالحريق، تلتها

لقطة بدت فيها حاملة الطائرات منطفئة الأنوار، كأن القاذفات عادت من أرض المعركة، وتهيأ الربابنة لحمام دافئ قبل النوم، وقالت : بصحتك. قم من فوقي. كتمت أنفاسي. وقلت، وأنا أسمع خطوات شخص قادم : هل تلطخ الديوان. وظهر وجه هاني في العتمة. قال : اشعل الأنوار يا نينو. ماذا تفعل؟ ونهضت ذات الفخذين مرتبكة، وانسحبت في العتمة إلى الحمام تجر خلفها رائحة غريبة، لعلها رائحة الدم والمني والعرق، وقد امتزج كل ذلك بالعتمة والصمت، وغبار البارود.

وضحك شاوشاو، باقتضاب. قال :

- إنها الحقيقة.

- صحيح؟ تساءل عبدو الثاني.

- لن تسمع بعد اليوم بباشوات وقواد المخزن القدامى وهم يرتدون اليوم بدلة العصر، وهم يحفرون المطامير ليلقوا فيها بالسجناء المعدمين، ولن تسمع بمثوى الأموات المسمى تازمامارت، بالطبع، ستبقى كل الأسباب والحيثيات وكل المصطلحات القانونية، وسيبقى ذلك الكلب العجوز المعلوم هو يشمشم طول الوقت في كل واحد تفوح منه الرائحة الغريبة إياها وما المانع يا ترى ان تكون لكل واحد منا رائحة خاصة ولكل واحد رأس فوق كتفيه

غير صالح للقطع إذ لا خوف من الرائحة وكلهم أحلاس قذرون متعطشون للانتقام، وهاهي السجون اليوم تدخل عصر التغيير والنخبة تهتم بربطات العنق وبقراءة الكشوفات البنكية، والمخابرات تذهب إلى ملاعب الكرة والمساجد وأسواق الخرذة عوض الإنصات إلى همس الخلايا الحزبية، ولا حاجة لمعرفة ما تقول الصحف، فكلها متشابهة، وقل لي من يضحك على الآخر؟ وهل تريد الحقيقة؟ والحقيقة هي أن تنظر إلى ما حولك نص نص، نص صاعد ونص نازل، نصف الحقيقة يعرفه العاطلون والنصف الآخر تعرفه الهراوات وكلاب البوليس. وماذا ستحكي أنت؟ قصة الأجزاء والأقساط المتأخرة عليك من الديون أم أنك شاهد إثبات محلف تدس أنفك تحت إبط هؤلاء القضاة اللامعين وتسجل بقلمك الرخيص أن قاضي البق دخل القاعة الموقرة لمحكمة كذا وكذا وتربع هناك في مجلسه في حوالي الساعة الفلانية ليطبق الناموس السماوي الذي لونته منظمات البق إياها بمقتضى السلطة المخولة لها في كل في الموضوعات التي تدخل في نطاق كذا وكذا بممثل واحد عن كل قبيلة سياسية وعن كل قبيلة بلا اسم وفيها رجال شابتهم الشائبة أو لم تشبهم شائبة يزنون بضمائرهم وأرواحهم وينطقوا حسب الأدلة وهم الذين حلفوا اليمين باسم من كان موجودا منذ الأزل وأن يقتادوا رجلا مثلي كان رجال كلاب

الشرطة قد قبضوا عليه بالصدفة يقود دراجته بالصدفة في شارع كذا على الساعة كذا بمعية فلان ويسلسلوا يديه ورجليه بناء على إخبارية وتقارير مخدومة تؤكد أن العبد للّه كفيل ولا تقبل منه كفالة وهو كفيل بتدبير مؤامرة كذا مؤامرة ضد نظام يمتد عمره ثلاثة عشر قرنا على الأقل لا غير ليطبعوا على جبينه كلمة مجرم كذا والله هذا عين العقل ولو كنت مواطنا صالحا لما تركت من هب ودبّ من البرصان والقرعان والعرجان ومرضى الجرب أن يخدشوا شرف المملكة ويبيعوا بزولتها التي أرضعتنا مقسطة في البراميل أو يدعوا ابن زانية يفكر في ذلك وهي غلطتنا نحن فنحن الذين سمحنا بمرور هذه المهزلة ونحن الذين نستحق الجلد والحبس والقرص والعض والتعليق من الأرجل ونحمد الله أن التخوزيق لم ينته زمانه. ونحن المسؤولون ونحن من فشل في تنقية البلاد من الوسخ والعفونة وشجعناها بضياع عمرنا في البارات وتغيير القمصان ولحس الطناجر وجمع الفتات حتى صرنا مطواعين مخنثين لبقين فوق العادة مثل تجار الثوب في قيسارية فاس مرعوبين بعد أن كنا معتكفين على الحريرة والبيصارة في مطعم النقابة نتلو شعر المجاطي فهو وحده يكفينا وينوب عنا ونؤدي طقس الولاء والاحترام والتقدير لزعيم الجلسة صاحب القوة والعظمة والجبروت سيدنا السّبسي الذي يحيط علما بكل ما يقع وما قد يقع في ثنايا العقول

والنفوس ونحن نضحك ونضحك آه كم ضحكنا وشبعنا ضحكا بينما حكماء الجواسيس وهم يحررون تقارير مختصرة لا يستطيعون الفهم وعليهم بالتروي فهؤلاء الملاعين أولاد الحرام السفلة أعداء النظام هؤلاء الملاحدة يكشفون عن العورة وتلك حيلة لن تنطلي علينا فخلف كل كلمة يقولها أولاد القحبة يكمن خطر داهم والله ثم والله ليستحقون الحبس وقطع اللسان وقطع الرزق وقطع الفلسفة والنفي في مستنقعات السل والجذام ويكفي أنّ نبيذ كروان وكيف وزان كانا وسيلتنا لكشف هذا البهتان، أي نعم والله.

وضحك عبدو الثاني، ورفع كفيه معا وصفقهما بكفي، وانمحت ضحكته رويدا ثم وضع نظارته على أرنبة أنفه، فيما شاوشاو يحسو رشفات من أتاي النيكرو. قال، وهو يرفع حاجبيه الكثيفين :

ـ هذا كلام معروف، كلام قديم، كلام عادي، وأحمد الله أنك ما زلت على قيد الحياة يا شاوشاو..

وصمت عبدو. وتعقبنا نظرته والتفتنا خلفنا. وواجهنا جسد فتاة متبرجة تلج المقهى، وهفهفت الجميلة ناحيتنا، ومرت تاركة خلفها ذيل غمامة تدوخ من يشم رائحتها. وعاد لسان عبدو

يشتغل، وقد بعثت فيه حياة إضافية :

ـ كان الله في عوننا جميعا، فهذه الحلوة، حلوة الحلوات، حلاوة الحرام، تستطيع أن تحرر شعبا بكامله من ظلم القرون، هي وحدها ملحمة. ملحمة من اللحم..

وانفجرنا بالضحك، كرهط من كلاب مجعورة.

ولم تتفوه الباتول بكلمة، لم تتفوه أبدا بأية كلمة، أيا كانت، منذ جلست في المقعد الخلفي للسيمكا، مستندة إلى جثة المرحوم، والإثنان معا، في ملابس بيضاء، هو سمين، وهي نحيفة، مع أنهما بعيدان كل البعد عن بعضهما، هي في الدنيا، وهو في الآخرة، يتوقفان معا، يسيران معا، وبين الفينة والأخرى يواصلان حديثهما الثنائي (وكان بالطبع حديثا بعيدا كل البعد عن..) هي تسأل، وهو يجيب، يملآن وقت الفراغ. ويستمتعان بنفس الرغبة، رغبة قتل الوقت، وقته هو، الأبدي، المتعارض تماما مع وقتها هي، المسجون في قفص الدنيا، هي، حين تلعب بالكلمات، واحدة إثر الأخرى، وهو، في غياب الكلفة، يتكلم، إلى حد ما، تحت ستار المرح، يلقي بكلماته الميالة للاستخفاف، بظرف زائد، بلا عقد، بلا حواجز، وبهذه الصورة يحضر، دون أن يحط من قدره، يحضر مرة أخرى، مع الملائكة، ويهمس، بصوت منخفض، مع

أنهما بعيدان كل البعد عن بعضهما، وقبل أن يدفن بعد صلاة الجنازة، بكلمات مختلطة، معلقة في الفراغ، متحررة من دوافع البشر، غير أنها كلمات تفصلها عنا تلك المسافة المعلومة، وربما هي مجرد فراغ، هوة، نهر موحل، ومع ذلك، هي تسعى، وهو يسعى إليها، خلفه ملاك الموت، رافعا منجله، وعلى أهبة اغتصاب الروح، أو أي شيء من هذا القبيل.. وشاركتهما الحديث.

سألت المرحوم:

ـ من هو ملاك الموت؟ (سؤال لطيف)

ـ هو رابع ملاك سجد لآدم. كائن معتم، يلقي بظلاله المقرفة على كل المخلوقات، ولكنه أدنى مرتبة من إسرافيل. جسده المتحول غير قابل للوصف، ومع ذلك يمكن تصور جسد هائل بملايين وملايين الملايين من العيون مزروعة في كل أنحاء جسده. عيون تنظر إلى أرواح كل المخلوقات، متربصة، تتابعك بطريقة أو بأخرى، في أي مكان، في أي زمان، وتلك ورطة بالفعل، فخلف كل مخلوق توجد عين لا ترمش، ولا تنام، ساهرة، قبل أن تنطفئ، وتعمى، إلى الأبد، حين تستل الروح، وهي عيون لا ترمش، تنظر إليك من أقصر مسافة، ابتداء من لحظة وجودك كنطفة، ثم وأنت نائم في أحشاء أمك، وأنت ترضع البيبرون، وتلعب، وتحلق شاربك، وتشتهي الجنس الآخر، وفي البلدية، وفي قاعة المحكمة،

ثم وأنت تقرأ مثل هذا الكلام، وفي المرحاض، وأنت تكفر بالأعراف والعقائد، مباشرة، تنظر إليك، لأن عين عزرائيل إذا انحرفت عنك قليلا ستضيع بين الخلق الكثير، لن تجدك تلك العين في الزحام، ستبقى على قيد الحياة، بلا مهنة، بلا أحفاد، مرميا في صناديق القمامة، مصابا بآفة الخلود، منحوسا، جسدك وروحك تنجدب نحو الرحيل الأبدي وهو مستحيل، فعين عزرائيل غفلت عنك، وستبقى هنا، مثل عبء ثقيل، بلا ذاكرة، تتضاءل، يوما بعد يوم، يتقوس ظهرك، يتساقط شعر عانتك، ينطفئ بصرك وتنمو أسنانك من جديد، الحياة الخالدة لا تحب الفراغ، على أسنانك أن تمضغ إذن، امضغ كالبهيمة زمنك الخالد، فعزرائيل، القاعد على سريره في السماء، وهو يمد أجنحته الأربعة الممتدة من المشرق إلى المغرب لا يراك، عيونه العديدة بعدد الخلق الذي مرّ من هنا تنطفئ وتعمى واحدة بعد الأخرى وأنت هنا، لكل روح عين عزرائيلية، وإذا عميت عين فمعنى ذلك أن روحا ما أصبحت تحت الإدارة المباشرة لإسرافيل فإذا مات جميع الخلق، ذكورا وإناثا، وعميت كل عيون عزرائيل، لن يبقى في جسده إلا عينه هو وعينك أنت، حينئذ يعلم عزرائيل أنك وحدك، معه بالطبع، عين لك، وعين له هو، وتصور، ما الذي يمكن أن يحدث، تصور فعلا تلك الانطباعات التي يحملها عنك، وأنتما، وحدكما في العالم،

وحـدك أنـت، قبـيل الـنفخ فـي الصور، وحدكما وجها لوجه، أي سـفك للـدمـاء يمكـن أن يـحـدث، أي اشـتـهـاء وأي تحـاسـد متبادل، وأنتما، تقتربان من بعضكما، كل على حدة، بخطواتك البطيئة المسترخية، وهو، بحربته أو بمنجله، بمخالبه وعينه التي تراك كما أمر الله وهو يريد أن يأخذ منك ذلك الشيء. وما هو؟ ليس سوى أنفاس نتنة، تقدّم إليه، نحو قبضته السوداء، بتمهل، فأنت على أي حال محظوظ، رأيت الكثير وتنزهت في ليالي الأزمنة، تملك كل ماضي العالم وها أنت وصلت اليوم إلى بهو الاستقبال قبل أن تلج اليوم الآخر، عين عزرائيل التي هي روحك تكاد تنطفئ وتعمى، وأنت هنا مفرد وحدك، فقير ومقرور ولا تملك إلا هذه الروح التي ستسلب منك، تصدق بها على عزرائيل، امنحها له، ولا تحزن على ما أراده الله، فبعد قليل سينفخ إسرافيل في الصور الشبيه بقرن ديناصور قديم، سينفخ بكل قوة أنفاسه الإعصارية الهائلة لتتسامق من العدم المطلق تلك النغمة الشبيهة بضراط الفيلة وقد تضاعفت أصواتها ملايين وملايين المرات، ومن العدم إلى الوجود الآخر، كائن مع كائن، وكائن مع أي كائن آخر، وسيكون الكل كما لو كان ولم يكن ثم كان من جديد، فتخرج الأرواح مكسوة بلا أجساد من مساكنها السماوية الشبيهة بخلايا النحل، متوهجة، مصعوقة، فزعة، وحولها جنود الله، مرفوقين بكلاب

نارية لتنظيم ازدحام يوم الحشر، وأنت ضيعت نظارتك، يرفعك موج الازدحام ثم يلقي بك لتدهسك الأقدام، تماما كما يحدث في أفلام رومان بولانسكي، قبعتك البنية لا وجود لها، وثقل جسمك لا حد له، وأنت، تتنفس الغبار القديم حين تثيره أجنحة إسرافيل وهي تغطي كل الخلق وكل السماء، وأنت تريد أن تدس يديك في جيوبك فلا تجد السروال ولا تجد يديك ذاتهما، وأنت تستعد لامتصاص صدمة السقوط، وحين تسقط لا تجد «الأرض» ليرتكز جسمك عليها، تجد فقط شيئا أشبه بالغاز المحتبس، وقد تحرر وأنت لا تعي أنك تتنفسه ولا تتحمله لأنك تتنفس غازا خبيثا، وتلتفت حولك وأنت حولك وأنت في غاية الدماثة فتجد شخصا يشبه الأمبراطور بوكاسا، وربما هو نفسه، يصيح : عطشان. عطشان. وأنت تريد أن تموت مرة أخرى كي لاترى وجهه، وأنت تقول لنفسك أين تلك المجاري، أين تقع مجاري النهر الخمري؟ وهل كانوا يكذبون علينا في الدار الدنيا؟ نعم. بالفعل. ستكتشف تلك اللحظة أنك حشرت مع زنوج إفريقيا، العراة الحفاة، زنوج يتباهون بأكل الكبد النيء ومص الدماء، وهم من جوعهم يأكلون بُرازهُم بعد أن يقضموا أصابعهم، قضمة واحدة لا غير، وكنت تتمنى أن تحشر مع ملك الدانيمارك وغاري كوبر ومولاي عبد السلام وسيدي رحال، مع قطة الجارة والملكة بلقيس والشيخ

البوصيري وابراهام لنكولن ومولاي بوسلهام، في يدك اليسرى قنينة من عصير العنب الأحمر، وعلى صدرك علقت لافتة كتب عليها : في صحتكم، وتحتها بحروف بارزة : ممنوع التبول، وأنت تستقبل بهتافات صاخبة، وبتصفيق جماعي، والجنود حولك يحرسونك، ممسكين بشكيمة تلك الكلاب النارية الشبيهة بالسكوتر الياباني، وأنت تضع ذراعك على كتف لنكولن، وتقول له : أقدر وجهة نظر الأمريكان في الأزمة، لكن الحرب الظالمة لم تكن أبدا هي الحل الوحيد.. ويتدخل الشيخ البوصيري محتدا : نشكوه إلى الله، لكن قبل ذلك انتف لحيته. ولا تعلم كيف عرف الشيخ البوصيري بوجود لحية مميزة على ذقن لنكولن، فهو أعمى. وضحكت بلقيس من كل قلبها، وأمسكت بقطة الجيران وأخذت المرأة تلمس فروها الناعم، ثم ضمتها إلى صدرها العاري، ومثل حمامة، هدلت القطة وشرعت في امتصاص حليب ينبجس من حلمة بلقيس الشبيهة بحبة بندق، وابتسم ملك الدانيمارك، وبسماحة وتواضع علق غاري كوبر : انظر إليها، أم رائعة، ولوّح الولي مولاي بوسلهام بسلهامه الطويل العريض، وتساقط الزنوج المزدحمون حول ملك الدانيمارك الأشقر، وصاح : أين المصور؟ لنقف متجاورين لالتقاط صورة تذكارية، يا سلام. وبدون عصبية، بل بود ظاهر، أمسكت بكف مولاي عبد السلام وقربته منك، وقلت له : ابتسم، وكررتها

مرة أخرى، ابتسم، قلت، ابتسم لأرى وجهك المتألق وعيونك الخضراء واضحة جلية في الصورة، والهالة تكلل هامتك، ولتبدو مثل جنتلمان، متفتح، مثقف، وطني، خبير بكل المدعين، وعلى رأسهم لنكولن هذا. ويبتسم مولاي عبد السلام بن مشيش، وأنت تعلم أن لا أحد يهمك، ولا شيء يروق لك، لأنك ترفع رأسك قبل أن تتراجع خطوة إلى الوراء ولا تعوزك الجرأة لتحرك عينيك ولترى أجنحة إسرافيل الوحشية وهو سيد هذا اليوم وأنت مجرد مواطن أبله في العالم الآخر. أجنحة كل منها ينسيك الآخر، أجنحة مستحيلة العد يزخر بها جسد لا حدود له لأنه تجاوز الممكن فغطى كل ما تحته وفوقه وحجب الشموس الأزلية اللاهبة قبل أن تنطفئ إلى الأبد في فجر هذا اليوم، وتلتفت حولك لتقول : انظروا. هاهو جبريل يطير، ويوضح لك مولاي عبد السلام : إن جبريل مع عظمته يطير بأجنحته نحو ثلاث مائة عام ما بين أنف إسرافيل وشفته العليا ولا يكاد يدركها، فهل تتصور مقدار عظمة هذا الملاك؟ وبالطبع، لا تستطيع تصور ذلك لأنك لا تستطيع تصور المدة الزمنية التي تقضيها زفرة واحدة فقط لا غير، تنطلق من صدر إسرافيل الذي لا تكفي كل كلمات الدنيا لوصفه، قبل أن تصل تلك الزفرة إلى فتحة الأنف، فكل عمر هذا العالم لا يكفي، لا تكفي حتى ملايين الأعمار، فما بالك أن إسرافيل يتنفس كما

يتنفس كل البشر، وبين الشهيق والزفير لا يشعر إلا بمثل ما تشعر به، لحظة تليها لحظة، والزمن أمامك، طويل طويل فلا تشعر به ينقضي مع أنه قصير قصير، ولا تعلم أن الموج يضرب صدرك وأن كل موجة تلد التي تليها، وهكذا دواليك. ولكنك لا تفهم، لأنك لم تتخلص بعد من الكمامة وهي تخنق أنفاسك وتبغي موتك، جوفك المحروق بالتبغ وابتسامتك البلهاء وأنفاسك المشبعة برائحة النبيذ ولسانك الضاري وهو يحكي كيت وكيت لن تجعل عين عزرائيل تطرف، عين عزرائيل عليك تنعم فيك النظر وتحدق وتخنزر وترنو وترى وتصطادك وتتربص بك وتبصبص بمكر وباستطاعتها أن تعثر عليك ولو سكنت بطن حوت. عزرائيل هو الوحيد الذي منحه الله قوة هزم اللذات وكنس الدنيا من كل المخلوقات. عزرائيل هو الذي أبكى كل مخلوقات الأرض وأحزنها وأذاقها من شرابه قبل أن يضع البرذعة على الظهر ويسوق أمامه الكائن الشفاف الخفيف المنجذب إلى الجسد المسمى الروح وقبل أن يطبق الصمت تماما. عزرائيل هو الذي أبكى الأرض حين جاءها وهو ملاك الموت يأخذ من زواياها الأربع قبضة من طينها وصلصالها لعجن هذا الكائن الآدمي على الصورة المعلومة وإلقائه على الطريق السيار التي يصعد ويهبط منها الملائكة المشهورون ولتسقط عليه وهو مجرد صلصال كالفخار طيلة سنوات وسنوات

أمطار الحزن والهموم تلتها سنة واحدة فقط سقطت فيها أمطار الفرح والسرور... ألا تصدق الآن أن عزرائيل يوجد قبلك وبعدك؟ ألا تعلم أن واحدة من عيونه وهي تعكس صورتك عبر الأمكنة والأزمنة هي في واقع الأمر مجرد كاميرا مزروعة في أحشائك..؟ صدق إذن كل ما يقال، فمعرفة شيء خير من جهل كل شيء، ولا تكن مثل عزرائيل. ألا تعلم من هو؟ عزرائيل هو الذي لم يترك بقعة بين السماء والأرض إلا وله فيها ركعة وسجدة، وعزرائيل مثل بعض الناس، لم يعترف بعظمة هذا الكائن الطيني الموهوب، فحولّه الله إلى إبليس لأنه أبلس، وصار كما يقول أبو نواس قوادا لذريته..

واختفى كل أثر لراكبي الدراجات. كناقد انعطفنا إلى اليسار وتسلقنا هضبة من كتل الطين الطري تاركين خلفنا غابة بلوط محترقة ما زال الدخان يتصاعد منها. ورأينا حفّارين مستندين على مجاريفهم كاشفين عن رؤوسهم الحليقة لبضع لحظات قبل أن يستأنفوا حفرهم في قيظ الظهيرة لمحاصرة حريق على وشك الخمود. وبدت لنا على قمة الهضبة بداية طريق رملي تخترق كتلا من الصخور الضخمة، ورجلا يركب حماره الذي يسير الحلويني. ولم تكن هناك أي إشارة تدل أننا نسير في الاتجاه الصحيح. وقالت الحاجة :

ـ لكي تزيل الشك، اسأل راكب الحمار.

واندفعنا بالسيمكا تجاه الحمار على أرض رملية مستوية وتوقفنا حين أشرت للبدوي بيدي. لم يقف البدوي راكب الحمار. ولاحظت الحاجة أنه كان يسير كالمنوم المستسلم لإرادة الحمار الذي يعرف طريقه ويسير عليها كالمسرع أيضا، وقالت :

ـ لعنه الله..

وقلت :

ـ الرجل نائم بلا شك، ولا يمكن أن نسأل الحمار..

اقتربت منهما وأطلقت بوق السيارة بقوة كي أوقظ البدوي، وفاجأنا رد فعل الحمار. فقد رفع أذنيه ووضع ذيله بين إليتيه وانطلق راكضا على غير هدى. وأخذ البدوي وهو مستقر على ظهر البرذعة يتمايل يمنة ويسرة قبل أن يرتفع عاليا ليسقط على الأرض مشتتا مع أغراضه. فيما البرذعة مالت إلى جانب دون أن تمنع الحمار من مواصلة الركض. وضحكت من كل قلبي حين رأيت البدوي مرفوع الساقين وما بين فخذيه واضح للعيان. وقالت الحاجة قبل أن أنزل لأستر الرجل :

ـ هذا رجل منحوس..

أخذت قب

عة القش القذرة التي كان يضعها البدوي على رأسه الحليق

وسترت بها عورته، وقبل أن أمد يدي لمساعدته على النهوض بحثت بعيني عن الحمار. رأيته هناك، قرب جرافة مركونة في الجوار، يقضم بضع حشائش تنمو تحت ظلال الجرافة، وعضوه التناسلي بطول ذراع في حالة استرخاء، وهو لا يبدي أي اهتمام بما يحدث حوله.

وقلت للبدوي:

ـ جاءت سليمة.. البركة فيك..

ولم يرد. خاطب نفسه وهو يبصق في كل اتجاه:

ـ اللئيم. اللئيم ابن اللئيمة..

حاولت إطفاء غضبه بأية وسيلة. قلت:

ـ على كل حال.. أنا السبب.

ونظر إلي بعين حمراء. وانحنى يجمع اغراضه. قال:

ـ لست السبب .. ابن اللئيمة هو سبب مصائبي.

وكنا قد تركنا البدوي ونحن في حالة تقع بين الشك واليقين. تجاوزنا الحمار والجرافة وكتل الصخور وسلكنا طريقا ضيقا يتجه نحو حافة تل صخري كان قد دلنا عليه البدوي. وارتسم على وجه الحاجة ذلك الإعياء حين يشعر به المرء في حالة الغثيان، واستدارت إلى الخلف ثم أشارت لي بإيماءة كي أتوقف. بدا لي عبر المرآة العاكسة أن المرحوم قد انزلق إلى جانب، وأن البتول تهمهم بصوت

محبوس وهي تحاول تعديل رقاده الجامد. نزلت الحاجة في مساحة ضيقة وتسلقت التلة واختفت خلف إحدى الصخور. تنهدتُ. فهمتُ أنها ستقصي لتتبول أو لتفرغ ذلك الشيء. حاولت النزول من السيمكا، لكن أعضائي لم تستجب لهذه الرغبة، واختفت الطريق المزروعة بالصخور والأحجار المسننة ثم لاحت هناك عند منعطف يتكئ على حافة جبل، ثم ظهرت صاعدة، ضيقة، ضيقة وبلا معالم، صاعدة نحو لاشيء، وإذن لم يبق ثمة م

جال للتراجع، فالطريق الصخري محاصر بالفراغ من جانب، وبصخور الجبل البركاني من الجانب الآخر، والمنحدر الحاد لا يسمح بأية مناورة للقيام بنصف دورة. وفهمت أن البدوي اللئيم صاحب الحمار دلنا على طريق وعرة مخصصة للدواب تختصر المسافة نحو ضريح الولي سيدي بومغيث المطل على البحر، وابتسمت لنفسي وقد قررت أن أخفي تخوفاتي عن الحاجة والبتول، وقدرت أن المرحوم يشاركني هو الآخر لعبة كاتم الأسرار، ولذلك انزلق ببطء إلى جانب وقد أخفى وجهه ورفع ركبتيه إلى الأعلى، تماما كوضع البدوي حين سقط من على ظهر الحمار. وتوقفت عن تشريح هواجسي المعتمة، فقد كنت أدرك بالحدس أن المرحوم يحاول بحركته تلك إخراجي من حالة الذهول وتشتت الذهن، وأنه يواجهني بتلك السخرية الفجة، أو بهذا المرح الفياض الذي لا تفسير له.

وتحدثت الحاجة ونحن نعبر الممر الصخري الضيق، ووجهها السمح يشع بسرور غامض. قالت :

ـ قال لي المرحوم وقت احتضاره، أبشري يا حاجة، الله سمع دعائي لأني رأيت نفسي في المنام راكبا على حمار أبيض، حوافره بلا حس كأنها صنعت من حرير، وبينما أنا سائر على هدى الطريق، قاصدا ضريح الولي سيدي بومغيث، إذا بشيخ ذي وجه مشرق قد أقبل علي يسلم. قال : أتحملني على ظهر الحمار لوجه الله؟ قلت : نعم. ثم ترجلت وساعدته على ركوب الحمار. وقال الشيخ ثانية : أطعمني مما عندك. قلت : ومددت له سلة تين ندي رأيتها معلقة في الهواء ولا أدري من أنزلها. التهم الشيخ كل حبات التين واحدة تلو الأخرى دون أن يتفوه بأي كلمة. وأقبلنا على حافة جبل يطل على شاطئ البحر، وقبالتنا من الجانب الآخر ضريح الولي. قال الشيخ : انزلني هنا. قلت : ألا تنتظر قليلا حتى نصل الضريح؟ قال : بل حاجتي هنا. فبعد قليل سيأتي المعداوي بزورقه لينقلني إلى الجانب الآخر للبحر. ثم قال : أريد أن أحملك أمانة. قلت : وما هي؟ قال : غدا صباحا ستجدني ميتا تحت تلك الشجرة، وأشار إليها، غسلني وكفني في الكفن الذي تجده تحت رأسي وصلّ علي وادفني تحتها، وإذا انتهيت من دفني فستجد ديكا أحمر الريش مربوطا إلى جذع الشجرة، خذه إلى بيتك

فسيأتي شخص يطلبه منك، ها نعته وصفته. وتركني الشخص ومضى. وبقيت طيلة الليل في هم وغم وتفكير إلى أن أدركني النوم قبيل الفجر، وقد تقبلت وضعي الجديد بصدر رحب بعد أن أسلمت مصيري لما سيحدث في الغد، فلما جاء صباح الغد، وهو الوقت المتفق عليه نسيت، ولم يلهمني الله نعمة التذكر إلا وقت صلاة العصر، حينئذ قطعت صلاتي وهرولت مسرعا نحو الشجرة، وجدت الشيخ هناك ميتا وتحت رأسه كفن تفوح منه رائحة الملح، وقلت لنفسي لعل البحر رماه بعد أن غرق الزورق بمن فيه. وقالت الحاجة : قال المرحوم وهو في النزع الأخير : ووجدت الكفن تحت رأسه تفوح منه رائحة تشبه رائحة البحر أو رائحة السمك الطري، ولكني حين شممتها بدت لي أشبه برائحة المسك، وقال : غسلته وكفنته وصليت عليه وحفرت تحت الشجرة فوجدت قبرا مبنيا بالرخام. وقال : عجبت لكل ذلك. وعجبت أكثر حين وجدت الديك مربوطا إلى جذع الشجرة، ثابتا في مكانه ينظر إلي كما ينظر بني البشر، وقال : ثم عدت إلى بيتي ليلا مخافة سؤال الناس عن قصة الديك. فلما طلع الفجر وبان الجو سمعت طرقا على الباب. وقال : في الوقت الذي سمعت فيه دقات الباب أفرد الديك العجيب جناحيه ورفّ بهما ورفع حنجرته بصياح يوقظ الميت من القبر. والتفتت الحاجة إلي بوجه باش. قالت : قال

المرحوم : حين دققت النظر في الطارق عرفته في الحال لأنني لا يمكن أن أجهل شابا فنانا أنيقا مثل فلان الفلاني، ونطق المرحوم باسمك، اسمك أنت، ورآك في الحلم وأنت تقول له : هل أنت فلان الفلاني. وقال المرحوم : نعم. وقلت أنت : هات الأمانة التي عندك وديعة لي، فقال لك : وماهي؟ قلت : ديك بريش أحمر لعلك سمعته يصيح قبل قليل. وقال لك : وكيف عرفت أن الوديعة عندي. قلت : لا أدري. إلا أنني كنت في دار فلانة، صحبة فلان وفلانة، نغني ونشرب ونتجادل في أمور الوقت إلى أن أذن المؤذن، وقمت لأستريح، فبينما أنا نائم إذا برجل ظهر في حلمي وهو يوقظني. قال لي : قم يا فلان، إن الله قبض روح فلان الأولى وجعلك مكانه، فسر الآن إلى فلان الفلاني على العنوان الفلاني فإن الشيخ أودع لك عنده وديعة، وهي ديك بريش أحمر. وقال المرحوم : وقلتُ له : الوديعة عندي. وأتيتُ له بالديك. أخذه مني وتبرك به ووضعه على رأسه، وتعجبت حين رأيت الديك يستقر على رأس فلان الفلاني كما يستقر القمر في الفلك. لا يتحرك ولا يطير، وجاس الديك بعينيه هنا وهناك، وقد حسبت في البداية أن فلان الفلاني هو الذي يجوس بعينيه الآدميتين، وأفرد جناحيه ثم صاح صيحة ما سمعت مثلها. أهي صيحة فلان أم صيحة الديك؟ لا أدري ولكن الرجل انصرف من قدامي وهو على

تلك الصفة. ولكني لم أعرف ما جرى له بعد ذلك، فصيحة الديك أيقظتني من نومي. فقمت وتوضأت وصليت ركعتين ودعوت الله أن يلحقني بالشيخ المدفون تحت الشجرة. أو على الأقل، أن يهبني متعة النظر في وجه الديك، صاحبي فلان الفلاني، قبل الممات، وفي هذه الدنيا الزائلة. وها أنت ترى، استجاب الله لدعوة المرحوم مرتين، مرة حين سيدفن تحت الشجرة، ومرة حين رآك ولم تره.

وقال وقلت. لكن شاوشاو قال أخيرا وهو يحدق في عيني عبده الثاني النسريتين تارة، وإلى عيني الضريرتين تارة أخرى، قولا ومقالا آخر. قال :

ـ أقول لك، أنا أحب تسميته بالدجاج عوض الديك أو الديكة. والفراريج هي كلمة ألطف، ولها صلة بالجوهر الروحي للإنسان، وهي أيضا ساكنة في ذلك اللوغوس الذي يقاسي فينا، في كل لحظة. وفعلا، إنها لكذلك، إنها رمز القربان، وهي المونولوج الدرامي الذي تنسجه أحشاؤنا حين نجوع.. أقلت نجوع؟ نعم، حين نجوع إلى عالم الكمال السماوي، فلا معنى للجنّة دون فراريج، ودون عنب، ودون رمان، فراريج شقراء، بنية، زعفرانية،

ذهبية، تكتنفها الأسرار، مستلقية على ظهورها، كالنساء، تدعوك إلى اغتصابها، بضمير مرتاح، وباسلوب جاف، وحشي، ابتسم لها إذن وتخلص من أحزانك الشيطانية، ابتسم لها أولا ثم داعبها، وبعدها، لاطفها، مرّر أصبعك على فخذها وصدرها، فأنت ذو مقدرة حقا، تشمم رائحتها واستجب، أمامك صيد موفق، تسلمه إذن بعيون ضاحكة، بحماس، وقبل كل شيء، تشمم وريقات النعناع المزروعة في إستها، لا تلتهم غصينات النعناع، فأنت نبيل بالطبع، أنت شخص غير عادي، لأنك دعيت ورحلت واكتسبت العلوم المستورة بخلاف كل الناس، أنت إذن تقضم اللحم، تمصمص العظام، وأنت تعلم أن لحم الديك مسكون بكل مذاهب الباه، وهذا الكلام ليس لي، هو أحد توصيفات الأزدي الصحاري صاحب "كتاب الماء"، وأنت تعلم أن لحم الديوك تتفرع عنه تفريعات اللحوم الأخرى، لحوم الدجاج الرومي، والطيهوج، شقيق القيج والحجل، لكن القبج والحجل والطيهوج، يستعين كل منها بجناحيه ليطير، ليختلف عما سواه، فيما الديك، الدجاج، الفروج، الدجاج العادي، والرومي، فيطير بالكناية، ولذلك فالدجاج صنف غريب من الطير، بل الأرجح، أنه ليس طائرا على الإطلاق، فوجود الأجنحة في اسمه وجنسه هو نوع من الاحتيال،

نوع من الاستعراض الكاذب، ولذلك فهو أساسا يسير على الأرض، ولكن الطيور كلها تسير على الأرض، باستثناء طائر الأباتروس الخرافي، الذي يولد طائرا، ويحترق طائرا، هو إذن كائن وصل إلى مقام الكائن الأثيري، الطيفي، الشفاف، وربما، إذا تخففنا من عبء التصنيف العقلي، واستعملنا ألفاظ المذهبية، نكتشف أن الديك هو مجرد طائر انتدب للسير الخفيف، والطيران الكاذب، مثلما هو الحال بالنسبة للطاووس، والحبارى، وثور بابل المجنح، والأسود التي نحتتها فنانو آشور، والحصان الطائر المسمى البراق، وجميعها أدرجت في صنف الطير، أي أدرجت، خيالا، في فلك الطير، وذلك ليستقيم لها استجماع الجواهر الثلاثة : الحيواني الأرضي، والطيفي السماوي، والأهم، هو الجوهر الثالث، الجوهر الخارق المقدس، فكيف تجتمع مزية الخفة السماوية والثقل الأرضي في كائن واحد؟ كيف لا نشرك بالله ونحن نقول اللهم لا طير إلا طيرك؟ كيف نتطير ونستطير لنسقط في مهاوي الطيرة بحثا عن الشرور؟ ألا يستحق الديك ،الدجاج والفروج، وهي جنس واحد، استعمال الكلمات البعيدة عن الفجور الأرضي، والنقصان الأرضي، والفناء الأرضي، لوصف حالته؟ ألا يمكن أن نعود إلى الحقيقة، حقيقة الظاهر والباطن، لنبحث خلف الحجب

عن جوهر هذا الكائن الخارق؟ ألا تعلم أنه يوجد بجسده الضعيف في الدنيا فقط، دون أن يبعث في اليوم الآخر، يوم القيامة، مثل كل الناس من حولك، ليكافأ، أو ليخسأ في جهنم إلى الأبد.

ضحك شاوشاو وهو يؤرجح رأسه يمنة ويسرة، ومضى، يتبعه عبدو، الثاني، وبمرح خاطب الأشباح، وأرواح البشر:

ـ يالها من ليلة، حين اضطرت بنات الثانوية إلى رفع تنوراتهن ليستطعن المرور فوق الطالب الذي تحول إلى ديك، وهو راقد في قيئه الأرجواني، التوتي، المتعدد الألوان والعناصر، وهكذا ضرب السكران عصفورين بحجر...

هنا راقبت الطير. هل كان أبو الطير يحمل اسم أنجوس؟لاأدري .الطير تغدو وتروح. وبالأمس طرت. طرت ليلة أمس، طرت بيسر. تصاعدت من سطح السيمكا ريشتان هزيلتان من الدخان، ومع هبة ريح رقيقة تطايرتا، حانت اللحظة الآن، ولا مفر من المحتوم...

شيئا فشيئا أخذت الأرض الواسعة تغيب، ربما كانت الريح القادمة من البحر القريب تسبح حمدا للآلهة، وربما تصاعد دخان

البخور على شكل دوائر لولبية ثم صعد بعد ذلك إلى أنوفنا. نزلت الحاجة متكاسلة حين رأت في عتمة المساء رجلا مجلببا ينزل درجا صخريا منحوتا على حافة مرتفع، وشبح بغلة عالية الهامة تتبعه. حانت اللحظة الآن. وإلى أين إذن؟. مشت أمامي كأن بحارا تفصل بيننا. توقفت حين التفتت لأرى عيني البتول. هل رأيت عينيها؟ نظرت إلي بعينيها الشهيتين وهما تقولان إني أخشاك. وبعد ذلك توقفت البغلة. وبخطو فهد، صعد الرجل المجلبب المرتفع الصخري تتبعه الحاجة. بينما أنا، ينتظرني شئ ما، في مكان ما، علي أن آتي إليه في الزمان.

آه. لكي لاأنسى، اقتربت من السيمكا وفتحت بابها الخلفي، مددت يدي لأمسك يدها. وانسلت خارجة بخفة. الحمد لله، وصلنا بخير. وكيف حالك أنت؟ ولم تجب. تلألأت عيناها وهما تتمعنان في البغلة التي دوخها تساكن الحياة مع الموت. ثم ،ببطء وحرص، انحنت البتول وانتزعت عسلوجا كان عالقا بجلبابها الخفيف. ورفعت مرة أخرى عينيها .كأنما تريد أن تريني السماء، حيث قطيع من السحب الصغيرة الداكنة تتحرك ببطء مع الريح.

هذا هو البحرقدامك، وهذا هو الولي المغيث عن يسارك، اتبعني، وتبعتها، والريح التي تهب تجعل جلبابها الرهيف يلتصق

بعجيزتها الذكورية وفخذيها. وخيل لي أنني لم أر قبر الولي المغيث وضريحه، بل رأيت تسعة من الأولياء أصحاب الخطوة، وتبعتهم، التفت إلي أحدهم وقال لي : ماذا تريد ؟ قلت : أريد أن أسير معكم إلى أين تسيرون لحبي فيكم. وقال أحد آخر : إنك لا تقدر على المسير إلى الموضع الذي نقصده. وقال آخر : دعه يسير معنا لعل الله يداويه. سرت معهم والأرض تطوى من تحتنا طيا، والحب يقول للعشاق هنيئا ، ووصلنا أخيرا إلى مدينة مبنية من شهد العسل، ترابها إبريز، وأشجارها المتعانقة ومياهها الرائقة وفواكهها الفائقة لا تخطر على بال. دخلناها وأكلنا من ثمرها ثم أخذت معي ثلاث تفاحات لم يمنعني الأولياء من أخذها. عندها سألتهم عن هذه المدينة. قالوا : هذه مدينة الأولياء، إذا أراد الأولياء النزهة ظهرت لهم هذه المدينة أينما كانوا، لكن أحدا لم يدخل إليها غيرك. كنت كلما جعت أكلت من ذلك التفاح الذي لا يتغير طعمه، وحين رجعت إلى بلدي بقي لي من ذلك التفاح تفاحة واحدة ادخرتها لنفسي. وجدت البتول تنتظرني، عانقتني وقالت ما الذي أتحفتنا به من سفرك ؟قلت لها : ما الذي أتحفك به وأنا بعيد عن الدنيا وعن الراحة فقير الحال. قالت البتول : وأين التفاحة ؟ قلت : أي تفاحة ؟ قالت : يا مسكين، والله لقد أدخلني التسعة أصحاب الطريق نفس المدينة وأنا طفلة لم ينبت لها

نهد، أما أنت فلم ترها إلا بعد أن طردوك، وأنا والله جذته إليها جذتة، وخطوت إليها خطوة..... وإذا شئت أدخلتك إليها الآن . قلت، نعم شئت ذلك الآن .قالت : يا مدينة، احضري الآن . ورأيت تلك المدينة بعينها، والله، رأيتها رأي العين ، رأيت البتول تمد يدها، وتقول : أين تفاحك يا مدينة ؟ ورأيت التفاح يتساقط، والبتول عارية، لا يستر عانتها شئ، كأن حواء خلقت من جديد، وأنا آدم، قبالتها، عاى نفس الحال، وهي تضحك، وأنا أضحك، ثم قالت مؤنبة، من عنده هذه المدينة، وهذا البيت، يحتاج إلى تفاحك ؟ عندها استحقرت نفسي، والله، احتقرت آدم الصغير الذي يسكنني، في يده تفاحة مقضومة ، وهو يبكي على الموتى ، وعلى مصير البشر، ولا يعلم هل يعيش حياته أم مماته، مع أن الطريق أمامه طويل جد وعر، كنت أعلم وقتها أن البتول من أكابر الأولياء، ولذلك اقتربت منها لأتنسم أنفاسها، وأتلمس أعضاءها الناعمة، وأنا أقول لنفسي : لعلني حين أعاشرها، تنسكب مني قطرة تكون بذرة لسلالة جديدة، لاتطاردها لعنة التفاح.

بعد تلك القبلة الطويلة التي تذوقت فيها ريق البتول غابت الشمس نهائيا. بدا البحر هادئا والقبور من حولنا صادقة وحقيقية.

كدت أفقد أنفاسي نعم والجبل خلفنا والمرحوم استطاع أن يجلب لنفسه المسرة وحين سرحت ببصري أحاول فهم السحاب والنجوم والموج والتراب آه   أحاول أن أعرف إن كنت أنا أول شخص في العالم قبل أن يكون هذا العالم أو أي شئ آخر يخلق أو ينبثق من العدم وكل شئ أنا وهي التي صارت متوردة الخدين مستسلمة لنشوة لا تستطيع أن تفيق ولا تقدر أن تحرك أصابعها المخدرة بعد أن لعب الثعلب مع عصفورها الصغير وهي تصرخ طلبا للنجدة من ماذا وقد خارت قواها وهي تموء منذ آلاف السنين وتعض وتعض على تفاحة تراها رأي العين ويتحلب ريقها وهي تمضع الآهات وفي بادئ الأمر سمعنا حوافر البغلة لعلها تنقل المرحوم ليسجى بين ضوء شمعة وشمعة وصراخ القريبات والبعيدات وهديل ذلك الطالب الذي تلا في البداية آيات من القرآن وتبعته كشلال من ضحك جوقة الطلبة الذين تشممت الكلاب ضراطهم قبل أن يغالبها النعاس قرب السيمكا مرعوبة من الظلال تعكسها العجلات وسيقان الحمير القادمة من الدواوير القريبة لرؤية الحاج المرحوم قبل أن يوارى التراب وأكل الكسكس وطرد الشيطان بقليل من الأوراد ودغدغة الأعضاء التناسلية تحت وخلق الجلباب والبنات الصغيرات يحملقن لا يعرفن شكل القنفذ المستور نعم يتدحرجن على الحصير فيما النجوم   الشاردة في السماء التي تشبه هاوية مقلوبة تصطدم

مع بعضها تذيب الدعوات الصالحات القادمة من قاع الأرض والشياطين الصغيرة النائمة على رصيف تلك الطريق الصاعدة دوما إلى الأعلى تستفيق أحيانا لتتلقف تلك الكلمات المقدسة وترمي بها بعيدا في خلاء الكون كي لا تمروكي تلحق الأرواح بتلك الخطوات التي سبقتها نحو الجهة المشتعلة بالنيران حيث لا ينبت قمح ولا شعير ولا توجد أزهار أو رياحين ولا تنفع بحيرات وبحار وأنهار كل العالم السفلي في إطفاء تلك النار المتدافعة مع أن الخالق في الأعلى بإمكانه أن يحرك أصبعا ليتوقف كل هذا الخوف وكل هذا الصراخ الذي يصاحب الموتى وهم لا يعرفونه لا أكثر ولا أقل وهي تموت كل لحظة نعم أعرفها وهي تعرفني أيضا ولا أنا ولا هي رمى نحو الآخر كلمة ساذجة تخرق السكوت الذي وجدناه بيننا ونحن ذاهبان بالميت إلى مثواه الأخير وكل ما بيننا ميت وهذا يكفي وليس بالشئ الكثير مادامت المرأة ركبت السيمكا وهي تخفي ما أخفيه أرقب عينيها وأرقب يدها تمتد إلى سرتها تتلمسها كأن الميت الذي بجانبها هو في بطنها ينمو مرة أخرى ميتا إلى أن رأت الريش على رأسي وأعرف من أكون أنا الديك الذي لا وقت لديه ليحيا مرة أخرى في هذا القبر الصغير الذي يأكل فيه كل واحد الآخر وربما هذه هي الحياة في النهاية لاأكثر ولا أقل .

صدر عن منشورات الزمن

I- كتاب الجيب

- **الكتاب 1 / أبريل 1999**

عبد الله ابراهيم : ثورة العقل

- **الكتاب 2 / مايو 1999**

عبد الإله بلقزيز : العنف والديمقراطية

- **الكتاب 3 / يونيو 1999**

محمد ضريف : الحركة الإسلامية : النشأة والتطور

- **الكتاب 4 / يوليوز 1999**

محمد سبيلا : المغرب في مواجهة الحداثة

- **الكتاب 5 / غشت 1999**

عبد الكريم برشيد : المؤذنون في مالطة

- **الكتاب 6 / سبتمبر 1999**

حسن أوريد : الإسلام والغرب والعولمة

- **الكتاب 7 / أكتوبر 1999**

عبد الواحد الناصر : حرب كوسوفو : الوجه الآخر للعولمة

- **الكتاب 8 / نوفمبر 1999**

عبد السلام حيمر : مسارات التحول السوسيولوجي في المغرب

- **الكتاب 9 / دسمبر 1999**

أحمد الريسوني : الفكر المقاصدي : قواعده وفوائده

- **الكتاب 10 / يناير 2000**

ادريس كثير - عز الدين الخطابي : أسئلة الفلسفة المغربية

. الكتاب 11 / فبراير 2000

ادريس الخرشاف ـ المعرفة الإسلامية والعولمة، أي آفاق ؟

. الكتاب 12 / مارس 2000

سعيد يقطين : الأدب والمؤسسة

. الكتاب 13 / أبريل 2000

طه عبد الرحمن : حورات من أجل المستقبل

. الكتاب 14/ مايو 2000

محمد شقرون : الكتابة والسلطة والحداثة

. الكتاب 15 / يونيو 2000

نور الدين أفاية : أسئلة النهضة في المغرب

. الكتاب 16 / يوليوز 2000

محمد أسليم : الإسلام والسحر

. الكتاب 17/ غشت 2000

عبد الإله بلقزيز : "حزب الله" اللبناني

. الكتاب 18 / سبتمبر 2000

المهدي المنجرة : عولمة العولمة

. الكتاب 19 / أكتوبر 2000

أحمد هوزلي : المغرب : البترول والتنمية

. الكتاب 20 / نوفمبر 2000

الميلودي شغموم : المعاصرة والمواطنة

. الكتاب 21 / دسمبر 2000

محمد يتيم : الحركة الإسلامية بين الثقافي والسياسي

• الكتاب 22 / يناير 2001

سعيد بنسعيد العلوي : الإسلام وأسئلة الحاضر

• الكتاب 23 / فبراير 2001

يحيى اليحياوي : العولمة ومجتمع الإعلام

• الكتاب 24 / مارس 2001

زهور كرام : في ضيافة الرقابة

• الكتاب 25 / أبريل 2001

مالكة العاصمي : نحن وأسئلة المستقبل

• الكتاب 26 / 2001

عبد الهادي بوطالب : العالم ليس سلعة

• الكتاب 27/ 2001

مصطفى المسناوي : أبحاث في السينما المغربية

• الكتاب 28/ 2001

عبد الواحد أگـمير: الهجرة إلى الموت

***

II - روايات الزمن

• الرواية 1

الولي الطاهر
يعود إلى مقامه الزكي

الطاهر وطار

• الرواية 2

ضحكة زرقاء

محمد عز الدين التازي

• الرواية 3

قطار الصعيد

يوسف القعيد

• الرواية 4

ديك الشمال

محمد الهرادي

III-

- العدد الأول / التحليل النفسي

كاترين كليمان

ترجمة : محمد سبيلا وحسن أحجيج

- العدد الثاني / التحليل النصي

رولان بارت

ترجمة : عبد الكبير الشرقاوي

- العدد الثالث / سقوط الأمبراطورية الحمراء

تأليف :د.ميخائيل فوسلينسكي

ترجمة : د.سناء المصطفى الموصلي

تقديم : د.اسماعيل العلوي

صدر عن الزمن أيضا :

الترجمة المغربية لكتاب روجي جارودي :

الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية

الطبعة 1 و2 و 3

Les Mythes fondateurs de la politique israélienne

par Roger Garaudy

انتظروا قريبا ضمن هذه السلسلة :

❖ أسرار مهمتي بالمغرب

تأليف :جيلبير كرانفال

ترجمة : محمد بن الشيخ

تقديم : عبد الهادي بوطالب

IV-

❖ أبحاث في المسرح المغربي

حسن المنيعي

❖ زمن الانتفاضة

عبد الإله بلقزيز

❖ السلطة والفكر

نور الدين أفاية

❖ التجريب في النقد والدراما

عبد الرحمن بن زيدان

V-

❖ الفكر التاريخي في الغرب الإسلامي

للدكتور محمود اسماعيل

العدد القادم :

مستقبل الكتابة التاريخية

في عصر العولمة والأنترنت

الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش



منشورات جريدة الزمن

روايات الزمن 5

الرواية القادمة

«عدد استثنائي»

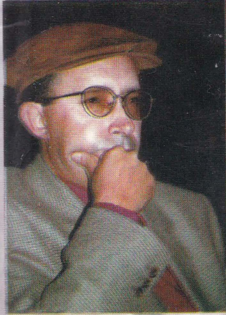
الوليمة المتنقلة

للكاتب العالمي

إرنست همنغواي

ترجمة : علي القاسمي

ديك الشمال


محمد الهرادي

« . . . قال : أتحملني على ظهر الحمار لوجه الله؟ قلت : نعم . ثم ترجلت وساعدته على ركوب الحمار .
وقال الشيخ ثانية : أطعمني مما عندك .
ومددت له سلة تين ندي رأيتها معلقة في الهواء ولا أدري من أنزلها .
التهم الشيخ كل حبات التين واحدة تلو الأخرى دون أن يتفوه بأي كلمة . وأقبلنا على حافة جبل يطل على شاطئ البحر، وقبالتنا من الجانب الآخر ضريح الولي . قال الشيخ : انزلني هنا . . .
ثم قال : أريد أن أحملك أمانة . قلت : وما هي؟ قال : غدا صباحا ستجدني ميتا تحت تلك الشجرة، وأشار إليها، غسلني وكفني في الكفن الذي تجده تحت رأسي وصلّ علي وادفني تحتها، وإذا انتهيت من دفني فستجد ديكا أحمر الريش مربوطا إلى جذع الشجرة، خذه إلى بيتك فسيأتي شخص يطلبه منك، ها نعته وصفته . وتركني الشخص ومضى . . . »


منشورات الزمن

15 درهما

لوحة الغلاف: معهد جوته بالرباط - المغرب